

دار الشروق

رسالة في الصبابة والوجد

الطبعة الأولى

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
برقيا : شروق ـ تلكس . 93091 SHROK UN
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق ـ تلكس SHOROK 20175 LE

رسالة في الصبابة والوجد

جمال الغيطاني



دار الشروق

الغلاف للفنان حلمى التونى

أما بعد ،

اعلم يا أخى الحميم ، أيدك البارئ الكريم بمدد من عنده ، أننى ما أقدمت على البوح لك أنت إلا بعد انقضاء مدى ، وما شرعت إلا بعد تعاقب أحوال شتى صعب علىّ كتمانها ، اقترن فيها قربى ببعدى ، واتصالى بانفصالى ، وخُلْفُ أمرى بتوفيقه ، وتبادلت جهاتى المواقع ، حتى قوى علىّ الشك أن ماجرى ، جرى ، خاصة مع تزايد الحضور بغير كينونة ملموسة ، وتكرار الظهور بغير معاينة محسوسة ، بعد انزواء جل العلاقة فى مجرد عبق خفى مستور بالحجب ، فلو أفضيت بما عندى بعد اكتمال الأوبة ، واستقرار العودة ، لو لمحت إلى ماتوالى علىّ ، ماصدقنى الأقربون ، حتى وقع عندى شتات بين اقبالى على من أصل أسبابى بهم ، لأبوح وأسفر ، وتوقى إلى النأى والصمت وطى صحفى ، هذا ما غلب علىّ ، خاصة مع بعد الشقة ، وانتفاء المحط ، وشحط الرؤية ، وانعدام المجاوبة على رسائلى . وزوال معالم الصورة الوحيدة عندى ، ووهن دقات الساعة الخزفية التى أودعتها بين يدىّ . والأصعب الأدهى ،

انتفاء الامكانية ، أحيانا تهدئنى الرؤى ، غير أنها تتبدد ، فلا يتبقى إلا قفر المفازة ، وغول الطريق ، فأنثنى ململما فؤادى طاويا دخائلى ، خشية أن يتبدد ما تبق ، وعندما بقيت مدة مهدهدا ، منهكا ، مدمدما بالوجد ، متخففا من شغاف الوهم ، لقيت الحمل ثقيلا وان لم ير ، والطوق محكما وان لم يلتف ، لذا أقدمت على التدوين إليك مع أنك قصى ، بعيد عنى ، لكن يشفع لى عمر انقضى قرّب بيننا ، جعلك كأنى ، حتى لو عسرت المودة ، وانفرط العقد ، وتباعد الشمل ، وندرت اللقيا ، بقيت أنت كالجهة التى لا تدرك بالحواس وإنما يتوجه المرء إليها ، هكذا وليت بهمى صوبك ، لعلى باسترجاع ما تبدد ، وروايتى لما يخيل إلىّ أنه جرى ، أقف على توكيد يطمئننى ، يرسخ الحجة عندى ، فاحتملنى ياأخى وإن أطلت ، ولا تذرنى إن أثقلت ، ولا تنصرف إن فصلت ، وبحق العشرة القديمة ، تلمس لى العذر فى شدة تهيامى

ديباجة الطفولة

ديباجة الظهور

... اعلم يا أخى أولا سبب مجيئى إلى ديارها ، ونزولى بلادها ، أقول ـ أدناك الله من مبتغاك ، وحقق لك مطلوبك ـ أننى ماجئت إلا لفترة محدودة بأيام المؤتمر ، إذ دعانى القوم للمشاركة والمداولة والمناظرة فى أفضل السبل للحفاظ على المبانى العتيقة ، وترميم ماتصدع منها ، ومايتهدده البلى ، وهذا لب انشغالى منذ ربع قرن وعدة من سنوات أخر ، ولى فى هذا المضمار قول وصولة وتجربة ، ألقيت بحثى ، أبديت وجادلت نفرا قدموا من بلاد شتى ، جئت برفقة واحد ممن علمونى المعمار ، وأضاءوا لى أسرار البناء ، أحالوه إلى التقاعد فى موطننا ، غير أنه لم يركن ، ولم ينه الخطة ، تراه فكأنه سيبدأ تحصيل المعرفة لأول مرة مبديا حمية وحماسا أوليا ولطف تدبير، إذن ، جئت موطنها ضيفًا ، غريبًا ، محدود الإقامة ، مدتى مبينة ، مثبتة على وثائق سفرى ، أما توقيت إقلاعى إلى منازل أهلى فمقدر سلفا ، أنى منقلب حيثما جئت ، هذا إدراك مدبب فى وعيي ، وبرغم وقوفى على موقوتية زمنى بالقرب منها ، إلا أننى عند ظهورها انسقت غير عابئ ، كاشطًا الصدأ عن مغاليق طال اقفالها.

ستسأل ، متى بدأت الرؤية ؟ متى تحقق نظرى منها وتمكن ؟ والله يا أخى مامن إجابة دقيقة ، مامن تحديد ، لو قلت لك أنها قديمة عندى ، سارية داخلى منذ قدر لا أعرف تعيينه ، فلا تكذبنى ، وإن أمرها بدأ معى قبل مجيئى موطنها هذا فلا تنح كلماتى ، وإن قلت إننى ماقطعت زمنى المنقضى إلا ماضيا تجاهها ، وعند لحظة معينة تلاقينا فتفجر الشرر ، وانتثرت الشهب ، وامتزج المبتدأ بالخبر ، فلا تتكئ علىّ . وإن قلت لك إن هذا الكون بمجمله مكان لأراها فيه فلا ترمنى بالشطط ! .

المقطوع به فى عالم الممكنات أنها لم تفارق موطنها هذا الذى أجيئه أول مرة ، أين هذا الماضى المولى كله ؟ لا أدرى ، أيقينى أيضا أن عينى وقعتا عليها فى الفندق الكبير ، حيث نزلنا ، واجتمعنا لابد أنها راحت وجاءت . تمهلت أو مرقت . غير أننى بقيت غافلا ، فلم تكتمل كينونتى بعد ، ربما لأن الجمع كثير ، والذهن مشغول بأمور شتى ، لكننى أنثنى وأقول ، إن هذا غير دقيق ، فكددى لم يكف ، ولم يخفت أبدا . اعلم يا أخى إن الظهور الذى أعنيه ، له حين مقدر. جربت هذا وعرفته ، حدث منذ عشرين سنة مضت أثناء تدربى بمركز علمى ، أن اعتدت المرور بشابة تقعد إلى مكتبها ، أبادلها التحية وأمضى ، إلى أن لاحت لى بعد طول استتار ، بدت فجأة ، توهج لحظها وألق عينيها ، وشوارد مفلتة من داخلها المضىء ، فانتبهت ، وبدأت سعيى ، متعجبا ، كيف غفلت عنها؟ ! كيف؟ ! وفى ظرف آخر، جاءتنى بنية هيفاء، رحبة، ولحظة

دخولها الحجرة نفذت مباشرة صوبى ، وصار بينى وبينها شأن ، ثم انقضى الوقت ، فلا تبدأ صلة إلا ونهايتها فى مفتتحها ، وهذا أمر له تفصيل ، لعلى مورده فيما بعد . اعلم أنه مامن بداية تشبه الأخرى ، منها مايحاكى ظهور الطل ، ومنها مايشبه تدفق السيل المباغت . أما هذه البنية فلاحت لى شيئا فشيئا ، قبل ظهورها فى هذا الصباح المبكر .

صعب علىّ التحديد ، مع أن يقينا يداخلنى الآن وقد انحلت المدة وغابت الحضرة ، إننى لم أكف عن مشاهدتها طوال وقتى ، أجوس خلال ذاكرتى متلمسا خيالات واقع أمسكته بين يدىّ ثم انطوى ، ولى ، وخلف عندى البين والوجد ، بعد انتهاء المؤتمر ، سافرنا فى طائرة معا مع بدء الرحلة إلى آسيا الوسطى حيث قصدنا معاينة ماشيده الأقدمون ، ضمنا هذا الفندق فى الليلة الأولى وإن تباعدنا جزنا العتبات ، ولجنا القاعات ، ركبت العربة التى أقلتنا من المطار إلى مأوانا ، جلست بجوار صاحبى ، ملصقا وجهى بزجاج النافذة ، متلمسا معالم المدينة التى لم أتصور أننى بالغها يوما ، يمكننى تحديد اليوم ، ثلاثاء ، يوم من أيام هذا الكون ، عند الفجر صحوت مبكرا ، عندى تأهب غامض ، وشعاع خفى من وهج ، شأن المقدم على رؤية مالم يخطر على قلبه أوباله قط . قمت وبدايات الضوء الآسيوى تنفذ عبر الواجهة الزجاجية ، أزحت الستار ، تطلعت إلى الملامح التى لم أتبينها عند وصولى ليلا ، جلت ببصرى عبر الحديقة لم يهن الشتاء من خضرة حشائشها وأشجارها ، أما رد

فعلى عند رؤية شجر التوليب الباسق ، الملتف ، الململم ، فكان تنفسا عميقا ، هذا شجر لم أطالعه إلا فى منمنمات المبدعين الآفلين من أبناء الناحية عرفت العديد منها ، ودرست ماتضمنته ، وأطلت النظر إلى توقيع خجل ، متواضع ، لعظيم ممن تنفسوا هواء تلك البقاع ، اسمه « بهزاد » ، إذن .. هذا شجر توليب ، تبدأ الحديقة بعد انتهاء الساحة المبلطة برخام وردى ، منبسطة تحت الفراغ الشفقى ، ومن هذا الحد بدت ، فى الصباح الآسيوى تجول ، تسعى ، لم يكن إلا هى ، تمضى إلى حد الحديقة الأيسر ، تنثنى حتى الحد الأيمن ، أنثى ، فارهة ، باسقة ، لها طلع ، تفسح خطاها مابين شجرتى توليب بعينهما ، لم أدر ، هل قاما منذ أزل قديم ، أم نبتا مع مجيئها؟ ترتدى معطفا رماديا طويلا ، سافرة الشعر ، لا تحجبه بغطاء الفرو الثقيل ، مناخ تلك النواحى مختلف عن العاصمة التى قدمنا منها ، اعلم يا أخى أننى بدأت معراجى ببصرى صوبها ، وبمجرد بدء الرؤية أدركت أن قدرى يكمن فى هذا الحضور الإنسانى ، لم أدقق ملامحها ، فالبصر كليل ، والمسافة غير مساعدة ، تردد عندى وجودها ، وصلنى تأثيرها فى هذا العالم ، انبثاق حركتها مابين الشجرتين الفارهتين ، لماذا نزلت مبكرة ، أتلك رياضتها اليومية؟ أهذه حركتها المعتادة فى مثل هذا التوقيت ؟ هل رصدت قلقا فى إيقاع خطوها ؟ ربما ، ساحت داخلى بهجة لم أعهدها منذ زمن ، وتفجر عندى بشر كالزمن الأول ، ولعلك تذكر رسالتى التى ضمنتها أسباب ضيق واكتئابى . وبدء اندحارى

بعد أن قمت من مرضى ، إرجع إلى مادونته إليك ، واعد قراءة ما سطرته لك ، لتدرك لب مقالى ، وأى حد كانت عليه أحوالى ؟.
خطر لى أن أفارق غرفتى ، أن أهرع فألقاها ، أن أقف أمامها ، وإن لم انطق أواجهها بالصمت والسكينة ، لعلها تدرك عنى . لكن .. ما أسرع الشروع وأبطأ التنفيذ ، حاد بصرى لحظة ، وعندما عاودت النظر رأيت الاطار وغاب عنى المضمون ، فتحت النافذة ، هواء بارد قاسٍ ، إذن فالشتاء هنا شديد . مددت البصر ، لم أرها ، عدت إلى وحدتى ، مغمورا بالرؤية ، بالنفاذ ، الآن يا أخى وأنا أتم تدوينى هذا أكاد أثق من رؤيتى لها قبل ظهورها ، قبل انبثاقها بين شجرتى التوليب ، لكن أين ؟ هذا مالا أقدر على تحديده ، متى ؟ ذلك ماليس عندى منه يقين . فى مدخل الفندق لم أرها ، أما المطعم فكان خاليا منها ، كيف أيقنت أنها تنتمى إلى جماعتنا مع أنى لم أرها إلا عن بعد ؟ لا أدرى .. طوال افطارى تعلق نظرى بالباب ، لم أرها فى ثباتى ، لكننا عندما اتجهنا إلى الحركة لمحتها ، تتأهب لصعود العربة التى ستقلنا إلى الجولة ، من مقعدى سددت البصر ، قعدت بجوار معمارى من الهند ، عندما استقرت حلّت عندى سكينة . أمكننى الرحيل بنظرى هنا وهناك ، مطمئنا إلى وجودها قربى ، أمر بشعرها الطويل نافر الخصل ، أتابع تدفق الطرقات ، ما أراه أطالعه أول مرة . والأرجح أن عينىّ لن تقعا عليه أبدا ، أدقق واجهات المبانى المشيدة كلها فى أوقات متقاربة بعد وقوع الزلزلة المهولة منذ

حوالى عشرين عاما ، خطوط صاعدة ، أقواس تؤطر الطوابق العليا والمداخل ، الأصول النائية عربية ، تتقاطع الشوارع الفسيحة الرمادية وتستدير الميادين ممتدة صوب الفراغ ، غير أن ثمة مسافة بقيت تفصلنى عن طشقند هذه ، كنت أبحث عن شىء لم أجده ، وأترقب أمرا لا ألقاه ، أما ما شغلنى فالرنو إليها خلسة ، والشروع فى الاقتراب كيف ؟ .

ترجلنا فى الساحة الرئيسية ، هواء صارم ، قادم من أقاصٍ بعيدة ، خطوت تجاهها ، تمكنت من جانب وجهها الأيمن ، أيقنت أن أمرا قديما بدأ ينفذ ، فى المعرض أبطأت الخطى ، وأفسحتها ، اقتربت ، نأيت . هى فى حركة وأنا فى حركة ، كان دنوى منها يتم خلال ديمومة ، اعلم يا أخى أنار الله برهانك ، أن الأقدمين قالوا إنه لاتنفصل حركة عن حركة إلا بسكون بينهما ، وهذا يعرفه أهل الموسيقى خاصة ، وندركه نحن أرباب المعمار ، هم يتقنون تأليف النغم ، والنغم لايكون إلا بالأصوات ، وتلك تحدث بالتعاقب ، بالتوالى ، بالحركات التى لاينفصل بعضها عن بعض إلا بسكونات تكون بينها . بين زمان كل نقرتين زمان سكون ، هكذا قالوا ، وأقول أنا ، ذلك شأن المعمار ، فالبناء لايتم إلا فى فراغ ، والقيام فى االفراغ حركة ، يبدأ من ثبات الأرض البادى ثم تتخلله الفواصل وما تلك إلا وقفات ، عند طوافى حولها كنت مرفرفا ، حائما ، لكن لى أويقات سكونى ، أولى فيها البصر بعيدا ، ثم أنثنى مستوعبا ملامحها على مهل . ماوقفت عليه أغزر وأغنى مما أقدر على

شموله أو استيعابه مرة واحدة ، شأن من يُحسو شرابا رائقا ، مسكرا ، فيرشفه متمهلا . متمنيا ألا ينفذ ، لإطالة المتعة ، والتمكن من القدرة ، ربما نعم لهذا كله ، وربما لا ، غير أن ما أعرفه ، أننى عند خروجى من بوابة المعرض ، رأيتها ، بمفردها يداها فى جيبى معطفها ، تماما كما كانت تدسها أثناء رواحها ومجيئها بين شجرتى التوليب ، لم أتقدم ، إنما دُفعت من داخلى ، لم أتجرأ ، إنما بدأ فعلى قبل قرارى ، وحركتى قبل عزمى ، ابتسمت مشيرا إلى آلة التصوير .. تسمحين لى بصورة ؟؟..

لاح نبأ ابتسامة من شفتيها المزهرتين ، مدت رأسها هنة إلى الأمام ، قالت برقة ...

ليس الآن من فضلك ..

ولم يكن بوسعى إلا الانحناء ، والانسحاب بعيدا ، كلا يا أخى لم أرتد خائبا ، فما لقيته ليس بصد ، وما سمعته لم يكن توضيحا للحد ، لم تنهرنى ، لم تقطع ، بل تضمنت كلماتها وعدا ، أما عن تراجعى فهذا أفضل ، ربما لأننى طفت مابين عينيها ، ونزلت بعينى لحظات عند قسماتها ، ملامحها وثيقة الاتصال . إذا ابتسمت مرحبة أشرق فى عينيها طيف حنينى ، وإذا تطلعت متسائلة وقع التلامس بين شفتيها ، والتقوس من حاجبيها ، وإذا تدفقت منفعلة فكَّك قوس قزح ألوانه وأظهرها متعاقبة وليست متجاورة . وعند مس الخجل تتراجع الشفة السفلى منطوية للعليا وتعمق الغمازتان اللتان تبدوان فجأة فى الوجنتين الثريتين ، الحادثين كالخبر المفاجئ .

حتى العصر عاودت دنوى منها ثلاثا ، وفى كل مرة أقول مبتسما .. لا تنسى الصورة ..

فيجيء التطمين، والوعد ، لكن ملامحها لم تأذن بعد. اعلم ياأخى أننى اعتبارا من هذا العصر، من توجهى الأخير إليها لم أعد أتحرك فى المطلق ، كل خطوة عندى تجاهها ، وأية إشارة من يدى هى المعنية بها . وعند أى نطق ، توقع أنها تصغى إلىَّ . ولو بدرت التفاتة منى فيقينى أنها ترقبنى ، ولو تحركت على مرأى منها ، أو تحدثت بقربها ، أو جلست صامتا ، فاننى أضمن حركتى وصوتى وسكونى رسالة إليها لعلها تتلقاها ، لم يعد الوجود مطلقا ، ولم تعد الكينونة مفرغة أو بلا غاية . بل صرت دوارا فى فلكها . من توابعها . كان مرورها يكتمل عندى ، جازت ، فاتت حواجز شتى ، وموانع قديمة ، وسنين مثقلة . وهموما متراكمة ، وأرصادا من الحزن قائمة ، فكّت أرصادا ، وحلّت طلاسم ، وفسَّرت رموزا استعصى علىَّ إدراك كنهها عمرا ، أقول لك قولى هذا ، ومامن حوار بيننا اتصل . ومامن تقارب مادى بدأ . لم أعرف بعد أن اسمها فاليريا ، وهذا حال ياصاحبى جديد ، سأبسطه لك وأشرحه ، علىِّ أفسر الأمر لنفسى قبل أن يكون لك ، هذا حق يا أخى والله ، فبقدر ماهى محدثة ، بقدر ماهى قديمة ، موغلة ، كنت مجروفا صوبها ، ومامن صاحب أو معين ..

قرب الغروب ، قبل رحيلنا بساعتين ، قاصدين بخارى ، أقيم حفل صغير ، خطب البعض ، وتكلم مهندس من بيرو عن الصداقة

بين الشعوب ، وتحدث البناء الهندى بلغة الأوردو ، وقام صاحبى فتكلم عن الحضارات القديمة وعن المتجهين صوب المستقبل ، التقط آخرون صورا ، لكننى كنت نائيا ، ماتم ترتيبه وماقيل ليس إلا الاطار الأتم لوجودها قربى ، اكتمل انفلاتى من الزمن بعد أن صار لى توقيتى الخاص القادم منها ، شيئا فشيئا تصبح محور تقويمى ، ولب شدى وجذبى . حتى إذا انتهت الكلمات . دخل شابان من أهل الناحية ، عيونهما آسيوية ، وصمتهما باد ، يحنو أولهما على طنبور . ويجلس الثانى إلى سنطور ، اثنان يا أخى اثنان لاغير ، لكننى لم أتصور قط أنهما سيفجران حزنا معتقا ، ويستنزلان أنينا كونيا بمجرد أن يجرى الأول قوسه ويداعب الثانى أوتاره ، أصغيت إلى خلاصة الشجى المتوارث ، إلى لب العويل النائى ، إلى قدح الشرر الناتج عن عدو خيول التتار الغزاة ، إلى الأسى على بنيان قام ثم تهدم ، وفراق قسرى جرى ، وتباعد آلاف عاشوا معا . هذه مناطق عبور ، اقدام شتى دهستها . اعلم يا أخى أن ماانقضى عند الآخرين باق داخلى وإن استتر . مالم يره غيرى أوليته عنايتى ، ولأن هبوب الصبابة بدأ ، لأن النذر لاحت لأنها على مقربة ، لأننى على مرأى منها ، اجتاحتنى نسمات البدايات ، ملت تجاه العازف ، مورّجت يدى اليمنى وأشرت باليسرى ، حتى إذا جلا عازف السنطور اوتاراً ، وفض أسرارا ، وأطلق نغمات طال احتجابها . تحرك علىّ الشجن المكلوم فى أغوارى فتأهبت للاقلاع ، فلم يعد مايحيطنى بقادر أو كاف أن يحتوينى ، كدت أو أوشكت ، لكن

ماجعلنى أحجم إلى حين ، انسياب بنية قدت من أطياف ورؤى ، منمنمة ، دقيقة التكوين ، عصفور تخلف عن سربه ، أو خلى حرد بعيدا عن أهله ، واحدة من بنات الأوزبك ، متدثرة بغلالات من زمن سحيق ، لم تفد علينا من مكان ، إنما جاءت من حقبة تتلوها أخرى حتى حطت فى وقتنا تبتسم للكافة فى وقت واحد ، فهى هنا وهى هناك ، هى عندى وعندها وامامهم ، مست يمين القاعة ويسارها فى وقت واحد ، بسطت حضورها ولملمته ، لم يكن رقصها أداءً حركيا إنما كان تلميحا وتصريحا . شرحا ومعنى ، على شفتيها ابتسامة فرحة بنجاة من أهوال تاريخ سحيق ، كان يمكن ألا تفيض حيويتها تلك لو أن أحد أجدادها الأقدمين أبيد فى غزوة . أو فنى فى وباء ، هذا حالى أيضا . فلو لم يتعاقب أسلافى لما وصلت إلى لحظة التى فيها تلك البنية . طق عندى شرر الفرح ، البهجة الغريبة لأسباب شتى . لادراكى أننى على وشك الخروج من جب سحيق ألقيت فيه منذ مرضى وما أورثنيه من أعياء وتدقيق فى الحساب . ولعلك تذكر ملامحى عندما عدتنى مرات يا أخى ، حماك الله من السوء وأقصى عنك النوائب والمحن . ما أصفه لك لحظات لم أعد لها العدة . ولم يخطر ببالى المرور بها عند بدئى الرحلة ، إلا أننى عزمت على دفع نفسى فى خضم اللجة مع جهلى المطبق بالعوم ، طاقت البنية الأوزبكية ملامسة اليابسة بأطراف أناملها ، حتى دنت وتمهلت وكنت أول من أشارت إليه ليشاركها ، قمت غير خجل ، بسطت حضورى واشهرت على الملأ وجودى ، تبعتها فكنت الظل

الوارف لأضل بديع . درت حولى ، حتى إذا وقعت عينى على من أحوم حولها ، وأتقرب من مشارفها ، سكنت ، أو قل أخذت عنى ، هى متطلعة إلىّ ، مبتسمة ، متجهة إلىّ بملامحها المتّسقة ، الصريحة ، تجاور الرجل الهندى ، ومهندس سويدى ، تتوسط قارتين ، حزمت أمرى ، لملمت حالى ، قطعت المسافة الفاصلة ، خطاى غير معهودة أو مسبوقة لا منى ولا من غيرى ، حتى إذا واجهت ملامحى قسماتها ، ولم يعد الفراغ الذى يفصلنى عنها كافيا إلا لمد يدى إذا شرعت فى المصافحة ، فردت قامتى تأهبا ، وتمنيت لو أن جذعى ساعدنى ، لو أن لياقتى واتتنى حتى تبلغ انحناءتى حدا لم يبلغه إنسان قبلى ، وعندما اعتدلت حدقت مباشرة فى عينيها ، فى وجهها الذى اكتسى خجلا ، رصدت طيف سرور فاستبشرت ، هكذا بدأت مراسيمى ، وانبأت باكتمال أوراق اعتمادى ، ملامحها الرحبة لم تحو استنكارا أو نفورا ، غير أن دهشة خفيفة بدت ، إلا أن ما أعاقنى عن التتمة تصفيق القوم ، يحيون إقدامى ، لم آت أمرا فريا ، إنما اسارع إلى المجاهرة ، فالزمن غير مساعد ، وعلى قدر المدة تكون العدة ، ولو أن أيامى ممتدة فى تلك الديار لتمهلت الخطى ، لكننى الآن مرغم ، فما يمكن الافصاح عنه خلال أيام وأسابيع علىّ إنجازه فى دقائق . وتلك الروابى التى فى حاجة إلى أوقات طوال لعبورها يجب اجتيازها فى لمح البصر ، عدت ألزم مكانى ، مال على صاحبى ، أو قل أحد أساتذتى . قال إننى كنت صادقا فى تعبيرى ، تطلعت إليه ومنى إليه تدفقت المودة وزهت أسباب الصلة . تأهبنا

للانصراف ، لاحظت توجهها إلى أقصى الغرفة ، قعدت إلى بيانو عتيق ، اختبرت أوتاره . بعثت أناملها أنغاما متسقة ، إلى جوارها وقفت اثنتان من زميلاتها ، والله يا أخى لم أرهما لحظة العزف ، لم أتنبه إليهما إلا فيما بعد ، بعد إيابى من رحلتى ، وتأملى الصورة ، أكتشفتهما ، عجبت ، أين كانتا ؟.. ولكننى أدركت أننى لم أر إلا هى ، ولم يستوعب بصرى إلا طلاتها وطلعتها ، ذلك أننى أشرعت آلة تصويرى ، لم تبد ممانعة . إنما مال وجهها ناحيتى ، فأسفرت عن زاوية لم أعهدها منها اثناء تطلعاتى ، اظن أنها قالت : تعلمت العزف فى الثامنة . رداً على استحسانى ، واظن أنها قالت : الموسيقى لازمة للمعمار..

اعلم يا أخى إننى آثرت الظن إذ يصعب علىّ التحديد ، إذ لقيت نفسى فيما بعد أهفو وأحن ، أستعيد أمورا لاقدرة لى على تبيان كيفية وصولها عندى . فبعض مما عرفته عنها أو منها أدركته بالمحاورة، أو بالنظر، بالنطق أو الصمت، بالايماء أو التصريح، حتى الوقائع تغمض علىّ ، ومن ذلك معرفتى لها عند ظهورها بين شجرتى التوليب. إذا أستعيدها الآن. أوقن أننى كنت أعرفها من قبل . وأننى لم أنجذب إلى مجهولة منى ، لكن متى وكيف؟ هذا مالا ألقى جوابا عليه ، صدقنى ..

مما خبرته يا أخى أن العلاقة تفيض بما لايدخل فى نطاق الوعى أحيانا ، خاصة إذا بدأ تواصل ، وشُرع فى التوالج ، عرفت ذلك ، جرى فى أيام بعيدة أن جمعتنى الظروف ببنية هيفاء ، دقيقة

المحيا ، أجهل لغتها كما لاتعرف لساني ،. عدا كلمات معدودات من الفرنسية ، دامت الصلة أياما سبعة ، في نهايتها كنت ملما بتفاصيل دقاق عنها ، وكانت تعرف عني ، هذا ما احتاج إلى فيض لتفسيره ، وإني مورد أمرا لطيفا اقصه عليك.. إذ حدث أن وقفت يوما في صحن مسجد الناصر قلاوون مشغولا بالمعاينة ، عندما دخل رجل أجنبي يتحدث الألمانية ، ولما كنت أجهلها لم أقدر على المجاوبة ، إلا أن عاملا أميا من أهل الناحية ، توقف بدافع من فضوله ، أو رغبة في المساعدة ، فوجئت به يحرك يديه ، ويشير بأصابعه ، ويهمهم ، ثم ينقل إليّ وعني ، أخبرني عن هوية الرجل ، واستفساراته عن المبنى ، وهذا مما حيرني ، حتى جربت فلقيت الوسائل شتى والسبل عديدة . ارجع إلى ما أنا فيه ، إلى من صارت محوري ولب قصدي ، فأقول أنها جاوبتني بما قلته بعد استحساني عزفها . خرجت من المبنى ، لحقت بصاحبي . استنشقت هواء باردا ، حوائجنا في السيارة ، اكتمل تأهبنا للاقلاع صوب بخارى ، إلى الزمن المطوى ، لطالما قرأت عن مدارسها ، عن قيامها وأفولها ، ثم انبعاثها ، طالعت صور قبابها ، وأسواقها ، وعقود مبانيها ، وتصميم قلعتها ، امضى إلى المدينة العتيقة وقد بلغت مدى بعينه ، ألم تجاوبني ، ألم تواجهني باسمة لاح منها مالا يمكنني اغفاله ، أليس بداية الضوء وهن ؟ رسول الغيث قطرة ، أول السعي خطوة ، إذن ؛ لايبقى إلا العزم ، ودعاء بإقصاء بغتات المقادير ..



مساق المسلسل

.. يا أخى ، اجيج الله توقا من يحبك إليك . وقربك ممن تهوى ، وقوى يقينك ، وأعانك على سعيك ، اعلم أن رحيقاً عذبا سلسبيلا بدأ يسرى عندى ، وأنك لعالم بحالى القديم ، وعندى الرغبة أن أحدثك عنه ، لكننى مرجئ ذلك ، فلأن الظهور اكتمل ، علىَّ المتابعة ، اعلم ياصاحبى أن اليوم الذى شهد تمام تجليها فى تلك المدينة الآسيوية ، اقترن بحدث ، أن بدأ منفصلا إلا أنه متصل. عند بدء رحلتنا ، وقبل فراقنا ديارنا ، جاءت أبنة صاحبى مودعة ، انتحت بى ركنا وأسرت أمرا ، أخبرتنى أن عيد ميلاد والدها سيحل أثناء سفره ، سيكون هو فى ناحية وهى فى ناحية ، رجتنى أن أنوب عنها فى تقديم زهور إليه . ان هذا سيسعده جدا ، قلت لها ألا تقلق ، إنه ليس فى موقع الأستاذ منى .. إنما الصاحب ، وهذا لم يتم إلا بعد سنوات طوال . تقلبت فيها الأمور ، وشهدته يخوض حربا ضد لصوص المقاولة ، ومن يفسدون الذوق السليم ، لا محرك لهم إلا جشع الربح ، غير عابئين بأحوال العباد . وللصحبة عندى ياأخى منزلة أكيدة ، كما أننى أضمر له محبة ، فهو ممن مدوا

لى العون وقت الشدة ، وبخلاف ذلك هو ممن ثبتوا فى الطريق ، ليس ممن مالوا مع الهوى أو حادوا ، ولهذا تفصيل يطول ، أقصر عنه خوف الاملال . عند بداية نهارنا فى طشقند سألت مرافقتنا الروسية عن مكان لبيع الزهور ، أفصحت عن غرضى ، وعدت أن تدلنى ، نصحتنى بتقديم عدد فردى ، خمس زهرات أو سبع ، قالت إنهم يتفاءلون بذلك فى هذه البلاد . أما إذا وعر الظرف وحل الحزن فتكون الأعداد زوجية ، وهذا غريب علىَّ ، أثناء تجوالنا قادتنا إلى ناصية تصطف عندها مناضد فوقها سلال الورد ، وأصص من الخزف ، مددت الخطى ، ابتسمت المرأة العجوز ، تغطى رأسها بمنديل نقوشه شرقية . تناولت سبعاً ، فى نفس اللحظة تقدمت مرافقتنا ، وعندما لمحنى معمارى من الجزائر العربية خطا صوب الزهر ، لم أعد بمفردى ، أبدى الرجل تأثرا ، تساءل عمن أطلعنا ، ثم تدارك قائلا : لابد أنها ابنتى . احتضنته مقبلا ، تبعتنى الروسية وهى مهندسة ممن يقمن على صيانة وحفظ المسرح الكبير ، وأعقبنا الجزائرى ، أما بقية القوم فوقفوا يرقبوننا باسمين ، حتى فرغنا ، فتقدم نحو صاحبى.. الكولومبى ، والهندى ، ورسام سنغالى ، أما هى فقد أقبلت مبتسمة ، حيت وهنأت ، كان ذلك أول النهار فى طشقند ، ومع اكتمال المساء حللنا بخارى ، تبدل الوقت ، بحساب الساعات ينقص واحدة عن طشقند ، وثلاث عن موسكو ، وأربع عن قاهرتى ، أما بمنطق الدهر فلا حد ، بخارى ياأخى لها رجع عندى قديم ، من المدن التى ظننتها بمنأى ، خارج

المتناول لشدة البعد ، وانقطاع الظرف المساعد ، كما ارتبطت عندى بجمع من القوم النابغين ، ونوع محبب إلىَّ من الأبسطة النادرة ، ألوانه أصلها واحد ، الأحمر ودرجاته ، العقيق والياقوتى والشفق ، أما زخارفه فهندسية . مستطيلة ، متقاربة ، متباعدة ، شأنى مع ذاتى ، مع من أحببت ، بها شبه من نوافذ تعد ولاتفصح ، أما الاطار فمحكم كالظروف المقيدة ، نزلت بخارى ، فجلت بنظرى عبر فراغاتها ، كان حضورها مدججا بالماضى ، جئناها ليلا فلم تكن المعالم بادية ، لا تفصح المدن عن مكنونها للغريب فى العتمة . تجدها مضمومة ، غير منبسطة ، حتى إذا انفردت بنفسى فى غرفتى ، وتطلعت عبر الشرفة كدت أوقن أننى جئتُ الديار يوما ، واننى تنسمت هذا العبير الصحراوى زمنا لم أعشه ، كدت أستسلم لما أوشك على الإصغاء إليه ، غير أن حضورها القصى دعانى ، ولم يكن بوسعى إلا أن ألبى . كنت نادما على أية دقيقة تضيع بدون أن يقع عليها بصرى ، أسرعت إلى المطعم ، لمحت صاحبى قاعدا وبجواره مرافقة الجمع . والمعمارى الجزائرى ، وأستاذ فى هندسة الجسور من سيام ، جلت بنظرى لأحدد مكانها ، لم ألمحها ، غير أنها لم تتأخر ، ولجت القاعة مُبَسّقة فارهة ، لاترتدى المعطف الرمادى الذى يخفى معالم وجودها الحسى ، ترتدى قميصا من الصوف ، تتعاقب ألوانه كموج البحر فى مثلثات متداخلة ، أحمر صريح ، وأبيض ناصع ، وأسود قاتم ، القميص فضفاض ينسدل على كتفيها ، أما بنطلونها الأخضر القطيفى المضلع

فيخفف من انفلات جسدها الأنوثى ، بلغنى حضورها الحسى القوى على البعد ، وإن لم أقف على شواهده ، ولم أمس تخومه ، قعدت بالقرب ، يجاورها الهندى ، ومعمارى من بيشاور ، راحت تتابع رقصا عذبا ، وغناء شجيا يمت إلى ماضى الناحية ، كنت أحوم وأحط عندها ، إما بنظرى أو حواسى الأخرى حتى جرى ما لم أتوقعه ، توقف العازفون ومالت المغنية الشابة هامسة لأحدهم ، وعندما استدارت لتواجهنا ، فوجئت بلحن يمت إلى ربوعنا ، أغنية شائعة تنادى عاشقا باسمه ، إلا أنهم غيروا ، فكان اسم صاحبى بدلا من اسم المحبوب ، غمرتنا بهجة إنسانية ، وقفت محييا مرافقتنا التى دبرت ذلك . بانت السعادة على وجهه وكان ذلك من ألطف مامررت به ، فى غمرة الود بسطت يدى داعيا ردت بابتسامة ، ابتسامة لم أعهد مثيلا لها ، إن جاز الوصف فهى رحبة ، دالة ، مدلة ، عند طلوعها من أفق ثغرها تضىء وجنتيها ، ثم تترقرق فى عينيها ، وكافة ملامحها وتنتقل إلى ماحولها ، يشع عبيرها ، فيه قبس من سر تدفق هذه الحياة الدنيا ، قمت ، تقدمت منها ، أشرعت ودى فلبت ، نظرت إلى رفيقيها ، قاما يتبعانها ، خطت فصافحت ، اتسعت الجلسة فشملت ، واجهتنى فأتيح لى طول التملى ، أدركت يا أخى أننى على وشك الاقتراب من مشارف لم يسبق تعيينها ، لكننى متأهب لحط رحلى . لإقامة مضاربى ، للخروج على الناس بادئا عرضى ، كنت موقنا أن لون الدماء يتغير فى عروقى ، وأن روافد نهر قلبى تتخذ مسارا جديدا ، كذا نبضى ،

وحواسى كافة ، هنا لا أجد مفرا من الوقفة ، حتى أطلعك على بعض مما وددت ورغبت تفصيله لك ، فكثير من أمورى لم تحط بها علما ، بعد أن باعدت بيننا الظروف زمناً ، واغترب كل منا ، أنت فى سعيك ، وأنا فى مقامى ..

تفصيــــــل

.. اعلم يا أخي ، جنبك الله المحن ، وأقصى عنك الشدائد ، وخفف هجيرك ، إن ماء فيضي كان قد بدأ غيضه منذ زمن ، وأن شحاً أدرك دفقي ، وأن أوصالاً تقطعت عندي ، وكثيرا ماقرأت شكواك من الغربة ، ولكنك لم تدر وأنت تبثني همك أنني مغترب مثلك ، وأوعر النفي ماكان في محل الإقامة ، وأوحش الوحدة ماكانت في الجمع . أقول ياأخي إن الأسباب تجل عن الحصر، منها ماتعرفه ، وما تجهله ، منها ما سأذكره لك ، ومنها مالا أقدر على تقييده ، تكفيني الإشارة ، تعلم ياصاحبي أن الظروف لم تكن قط سهلة منذ البدء ، وقد ربينا معا ، ودرجنا ، وأحببنا وخططنا لتحقيق الحلم. لكن الظروف لم تكن مساعدة ، لست بحاجة لأن أحدثك عن أيام دراستنا الجامعية ، وهذا التدفق ، وتلك الحيوية ، كان الحذر نائيا ، والبوح من خصالنا والمجاهرة ، والشعور أننا نتحمل مسئولية اصلاح هذا العالم ، وأن مصائر شتى أقدارها حول أعناقنا ، وأن أهلا لنا غير قادرين على إسماع أصواتهم لمن بيدهم النهى والأمر ، والحل والعقد ، آثرنا أن ننوب عنهم ، لن

أستعيد أيام المعتقل ، فلطالما أفضت فى سرد أحداثها . وماجرى لنا فيها وماقسيناه من وحشة وعزلة ، وإرغام قسرى لنفض أختامنا ، هل تصدقنى إن قلت لك يا أخى أن أيام السجن تلك تهون عند تذكرها إذا ماقورنت بأيام تلت كنت فيها حرا ، طليقا ، لا أسعى على هواى داخل موطنى فحسب ، وإنما أسافر إلى بلدان شتى ، أيام ادراكى بأن مايجرى مهول ، وأن التدهور يتم بأسرع مما نتصور ، وأن التغير إلى الأردأ والأسوأ يلقى المساندة من قوى تفوقنا بكثير ، هذا مع وقوع الخلف والمعاكسة بين من قدرهم التصدى والمحاربة ، وأصعب مايواجهه إنسان ، إن يلقى نفسه وحيدا فى مواجهة عتو طاغ ، ولا مبالاة جارفة ، وفساد شامل ، فيدرك ولا يفعل ، يعى ولا يتحرك إلا بقدر إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، والله يا أخى لم أتقاعس قط ، إذ شاء حظى واختيارى أن ألزم الصفوف الأمامية ، عند الأقاصى وعندما بدأت كان الواقع كله ميدانا لى ، حتى حلت سنوات العقد السابع فتدنت الأحوال ، وتقهقرت الأمانى ، وتقلصت الساحة حتى ضاقت فأصبحت ذاتى ، صار همى أن أقيم المراصد والقلاع على عجل ، حتى يبقى الجوهر سليماً ، والنواة بمنأى ، كلفنى هذا الكثير يا أخى ، حتى جرى لى ماسمعت أنه جرى لآخرين وظننت أنه لن يطالنى قط ، وأنى لقاص عليك واقعة لم أخبرك بها ، ولم أفصلها لك . ربما لأن الفرصة لم تسنح لقلة لقاءاتنا . وتباعد المزار بنا ، تعرف أننى خبرت عللا كثيرة ، وأمراضا ، غير أن ذهابنا إلى الطبيب لم يكن إلا إذا دنا المرض من

حد الخطر ، بل كنت إذا سمعت بصاحب أو غريب مضى إلى طبيب يداوى النفوس أسخر فورا . هل تدرى أن الأيام مرت بي حتى سعيت ذات غروب إلى واحد منهم . كان ذلك قبل سنوات تسع من اكتمال ظهورها فى مدينة طشقند النائية بين شجرتى التوليب ، فى هذا العام ، ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، ضاقت علىّ الأرض بما رحبت . وبدا الوضع الجاثم أصعب وأثقل من أن نبدله فى لمح البصر كما نرغب ، فى تلك الليلة كانت الأحوال كثيرة علىّ ، والظروف متكأكئة ، كنت بين النوم واليقظة عندما قمت فجأة قاعدا فى سريرى ، اضطراب غريب فى امعائى لم أعهده وأوعر الآلام ماكان غير مسبوق . بدأ هبوط لين . دقيق . لكنه مخيف ، مدجج بالنذر ، بدأ ارتجاف أوردتى ، ونفور نبض قلبى ، الأدهى والأمر وعيى المكتمل أن النهاية ستتم بعد دقائق ، بل قل لحظات ، وهنا لى وقفة ، فربما حان أجلى بعد خمس ثوان من تسطيرى هذا ، لكننى مادمت لا أدرى فما من جزع أو خشية ، أما لو علمت الآن أننى سأقضى بعد خمسين عاماً كاملة فى يوم بعينه وساعة محددة ، أؤكد أن حالى سيصير نكداً ، سأحصى كل لحظة ماتبق ، أقول قولى هذا وأنا واثق أن ماتبقى أقل مما انقضى ، وأن ماصار ورائى أطول مما سألقاه أمامى ، وأنى لمحدثك يوما عن القضاء والقبض فى رسالة أفردها خصيصا ، إذ شغلت بالأمر جدا منذ هذه الليلة ، أقول يا أخى إن الإنسان يظل مطمئناً ، راضيا ، حتى لو أن أجله سيحين بعد دقائق . لاتدرى نفس ماذا تكسب أبداً ، ولا

تدرى نفس بأى أرض تموت ؟. وهذا من أجل النعم فانتبه !.

دهمنى فزع ، صار حضورى كرباً ، غزانى فزع أكبر ، تزايد وعيي بأن ماتبقى لى مجرد ومضات ، أننى سأقبض هنا ، أن زمانى انتهى ، وهنا بزغ عندى الهرب ، أن أولى فى الأرض لعلنى مفلت من اللحظة ، مع تمام علمى ويقينى أنه يدركنا ولو كنا فى بروج مشيدة ، فكان حالى مثل الرجل الذى هرب من الموت إلى الهند ، وتلك حكاية طالعتها فى كتب الأقدمين ، وانى لقاصها عليك ..

حكايـة دالّـة

يحكى أنه فى ضحى يوم ، كان سيدنا سليمان يجلس على عرشه يحيط به الإنس والجن ، عندما دخل عليه رجل من رعيته مفزوعا مضطربا ، قال لسيدنا سليمان الحكيم ..

« الحقنى .. انقذنى يامولاى ..» .

تعجب سليمان متسائلا :

« ماذا بك ؟ » .

قال الرجل إنه كان فى الطريق عندما رأى عزرائيل ملك الموت ، نظر إليه شزرا وبدا حانقا ، غاضبا ، منذرا بالشر ، تملكه رعب ، أدرك أن أوانه دنا واقترب ، لذا يرجو سليمان الحكيم أن يأمر الريح بحمله إلى الهند ، إلى أقصى أرض هناك ، حتى ينجو من الموت . رق سليمان له . أمر الريح فحملته فى اغماضة عين إلى الهند .. بعد قليل ظهر ملاك الموت فعاتبه .سليمان قائلا :

« تسببت فى غربة أحد رعيتى ونأيه عن وطنه ، لماذا نظرت إليه غاضبا عندما قابلته ، لماذا أرجفته ؟».

قال عزرائيل ..

« لم انظر إليه غاضبا ، إنما نظرت إليه متعجبا ، لأن الله آمرنى أن أقبض روح هذا الرجل فى الهند ، فلما رأيته هنا تعجبت .. كيف سيصل إلى الهند وأنا مأمور بقبض روحه بعد لحظات ؟.. »

رجعى إلى ما انقطع

ـ فزعت !

هرعت إلى أقرب باب إلىّ يؤدى إلى الشرفة ، اتجهت إليه ، وعندما شرعت فى اعتلاء السور أدركتنى والدتى ، أيقظها حسها الأمومى وما أحدثه فتح مصراع الشرفة من ضجيج ، كنت أبغى الوصول إلى الطريق بأقصر وأسرع وسيلة ، حاشتنى ، صرخت فدب فى وعيي الروح الحافظة ، انثنيت إلى الداخل مبتلا بعرق مرددا ..

مازلت أحيا .. مازلت أعيش ..

فى عصر اليوم التالى قال لى الطبيب المداوى إن القلب سليم ، وأن علاج العلة يختص به أطباء النفوس ، هكذا سعيت بقدمى إلى أحدهم ، أصغى ، دوّن ملاحظات شتى ، ثم أطلعنى على ماخفى علىّ ، مامرَّ بى أعراض اكتئاب شديد جاثم علىّ . وصف لى أدوية ونصحنى بخطة ، أن أغير مسارى ، أن أبدل الإيقاع ، هذا ماقاله لى ، غير أن ما أدركته تلك الليلة ، مالم ينفذ إليه هو ، مالم أفض به حتى لأمى ، مالم أبح به من قبل ، وعيي أن احتضارى بدأ هذه

الليلة ، علمتنى التجربة والأطلاع على أحوال الآخرين ، آن البعض يبدأ احتضارهم فى الثلاثين أو دون ذلك ، وقد يمتد بهم العمر إلى الستين ، إلى السبعين ، وفيما تلا ذلك عرفت أعراضا شتى ، نمت أحيانا وعندى يقين أن النهار لن يطلع علىّ ، قمت فزعا من نومى ، خشية الموت ودمعى نازف ، عبرت طرقا أراها بعينى من سيبقى بعدى فى هذا العالم ، أشدت عمائر لم أثق أننى سأتمها عند وضع أساساتها ، وعندما اكتمل يتمى بفقد أمى ، أنهار حاجز كنت أعده حاميا ، يحول بينى وبين أدراك العدم ، وعندما طق الألم وسد وريد ساقى ، قال لى الطبيب ، إنك محظوظ ، كان ممكنا للجلطة أن تتوقف فى موضع أشد دقة ، قال ان هذا بمثابة إنذار طلب منى مايستعصى علىّ ، ألا أنفعل ، أصغيت ولم اعلق ، وخلال اضطجاعى أربعين يوما ايقنت أننى قطعت شوطا ، نال منى النصب هدنى تعب ، نأيت عن الأصحاب ، وندرت أوقات الرفقة ، وشحبت المحبة ، وهذا كله من علامات عصر انقلبت فيه الأحوال وصعب عيشى ، وظننت كساد سوقى ، وفساد متاعى ، واعتراض ركبى ، وانقضاء الأكثر وبقاء الأقل ، صعب حالى ، ووعر ظرفى وبقى الأمر فى شدة حتى هذا الفجر ، حتى مطلع النهار فى تلك الأقاصى الآسيوية ، وبتراثى الموجع هذا واجهت اشراقها ، وحضورها الفتى ، البهى ، لعل وعسى ! !.

افصـــــــاح

اعلم يا أعز صاحب ـ رقق الله خواطرة ـ أنها واجهتني : شغلت فراغا أمامي بضيائها ، شددت رحال بصري صوب ملامحها ، وعمق حضورها ، محاولا التمكن من نضارتها ، وغرابة عينيها الرحبتين ، الطاقتين ، النورانيتين ، حيث يتطهر فيهما الضوء ويشف ويرق ويرتد إلى عناصره الأولى ، حتى هذه اللحظة لم تكن تعرف عني شيئا ، كانت تجهلني ، لا من حيث صفتي واسمي ، لكن جوهري أعني ، وان خمنت إدراكها لما يتطاير صوبها من شرري ، من وهج وألق ، كنا مازلنا في غمرة احتفالنا بصاحبنا ، جاء رفاق الرحلة . تضاموا صرنا جمعا ، انشدوا فأنشدنا ، لوحوا فلوحنا ، شاركت من بعيد وإن كنت على مقربة ، كان انشغالي يتزايد ، كنت مشرعا حواسي لإدراكها ، لاستيعاب جلوسها ، تراجعها برأسها المائل قليلا ، ابتسامتها التي تطل فجأة ساعية صوب العالم بأسره ، فما البال لو خصت شخصا بعينه ، سلكت طرقا شتى صوب ابتسامتها تلك ، تارة خلسة ، ومرات مباشرة ، علانية ، كنت في عجلة ، فالوقت محدود ، وعندي حشد لابد من دفقه

وايصاله فى فترة وجيزة . أما الآن فهمى الأول إعلان ولائى ، وتبليغ فيضى ..

اعلم يا أخى ، أننى عند اطلالة افراحى تتحرك أشجانى . تساءلت إلام سيستمر هذا ؟ إلى متى وزمن الرحيل محدد ، لم يتبق إلا أيام معدودات ، بل أمعنت فتساءلت ، كيف سأستعيد هذه اللحظات فيما بعد ؟ وهل سأتقلب عليها حسرات ؟ كيف سيعصف بى شوق ، وكيف سيكون وجدى ؟ هذا حالى يا أخى أرى النهاية فى البداية ، والأفول فى البزوغ ، والغروب عند بدء الشروق ، لا لحظات حميمية تأخذنى عنى ، ولا اندماج كلى فى عمل يشغلنى عن جواى ، فوجئت بصاحبى المحتفى به يقوم واقفا ، يدعوها إلى رقص فتلبى ، تمضى أمامه ، متأودة ، لها رسوخ ، يتدفق منها كيان بأتمه ، لم تكن تسعى ، إنما تفيض ، لم تكن تخطو ، إنما تهمس لليابسة بموطئ وجودها الحسى ، تابعت خطوهما حتى ولوجهما الحلبة ، ملامسة صاحبى لكتفها ، ابتسامته ساطعة ، عنده بشارة دائمة وحماسة متأججة ، يسعى الطلبة إلى محاضراته لجاذبية إلقائه ، وحرارة خطابه ، وجزل عباراته ، يتجاوزنى عمرا بما يقرب من خمس قرن ، غير أنه فى حركة عنى ، متدفق الانفعال باديه ، صريحه ، ينفذ إلى الآخرين عبر كلماته ، على نقيضى ، إنما يكون ذلك عندى بصمتى ، بانفجارى المفاجئ ، أتابع خطوهما ، تلاقيهما ، تباعدهما ، تحاور جسديهما ، يميل المعمارى الهندى فجأة ، هامسا ..

« معجب أنت بها ؟» .

فى صوته النحيل ود ، رغبة فى القربى ، لم أراوغ ، أومأت ، قال باختصار دال ، شأن من يبصرنى ، من يطلعنى على خبايا لأقرر ، لأحسم خيارى ، قال إنها فى الرابعة والعشرين ، متزوجة حديثا ، تحب زوجها ، أنها متخصصة فى ترميم المبانى القديمة ، صمت لحظات ثم قال ، إن المرافقات كلهن ينمن فى حجرات متقاربة ، كل منهن بصحبة زميلة لها . أفضى ثم تطلع إلىَّ ، إلا أننى لم أعبأ ، فما أتأهب له ، ما أشرع فيه لن يدركه من يعرفنى ، فكيف بمن يجهلنى ؟، عندما عاد صاحبى المحتفى به . مال علىَّ هامسا ..

« إدعوها للرقص ..»

تطلعت إليه مضطربا ، كأنى خشيت أن تكون سمعت اقتراحه مع أنه أفضى إلى بلغة لاتعرف منها حرفا ، أننى لا أتقن الرقص فكيف أجرؤ . فكأنى مقبل على ارتداء لباس غيرى ، عاود صاحبى الهمس ..

« هذا لايليق ..» .

أعى أننى من جهة ، وهى من أخرى ، أننى قادم من زمن غير زمنها . ميراثى مختلف ، بوهجها تبدو فى بداية ، أما مفتتحى فقد أغلق منذ حول ناءٍ ، هى فى إقبال ، وأنا فى إدبار ، هى فى قلب الراحلة ، وأنا متعثر الخطى ، يمكن أن أتخلف فى أية لحظة ، فأية كهولة مبكرة نالت منى ، وأية شيخوخة أدركتنى قبل الأوان فى هذه اللحظة انتبهت إلى تطلعها.صوبى ، بدأ حضورها مختلفا ، مغايرا لما

كانت عليه منذ دقائق ، أنها مترقبة ، متوقعة ، كأنها مشرفة من عل ، انفراجة شفتيها لا تلحظ ، أما أفقها فرحب مضيء ..

« أنت مخطئ ، أنها تنتظر .. » .

بما أنني اعتبرت وجودها محطي ، وشرف غايتي ، فلماذا لا أسلك الدروب كلها ، ما أعرفها ، وما أجهلها ، فلأتغاض ، أتخفف من أثقالي ، فلأعد ترتيب مكنوني . فلأبسط ما تيسر من أمري ، قمت واقفا ..

« أتدعوني ؟» .

جاوبتها بنظر رق فشف فدل فأفضى ..

« إذا سمحت .. ».

بسطت يدي ، تقدمتني ، عندما دنوت ، لم ألمس صوف قميصها إنما بدأت اتنسم مشارف وجودها الحسي ، منه تسربت تجاهي اشارات وإيماءات ، أثق أنها لاتعي من أمرها شيئا . كما أن تفصيل القصد منها مبهم وإن أدركت محصلته النهائية ، بدأ القرب ، فلما ضاقت المسافة بيني وبينها .. وصلني من أنفاسها بريد مفضوض . غير ذي طوى ، ينبئ القاصي حتى بعبيرها ، فما بال الداني المتلهف ؟، منها بدأ سنها لم أعرفه عند جلوسها في مواجهتي ، وحضور مغاير لما طالعته منها عند سعيها اليوم في بخارى ، اعلم ياصاحبي ، أنني إذ أخط لك هذا الآن ، إذ أستعيد الشوارع العتيقة ، فلا أراها إلا مقترنة بها ، هي في البؤرة ، ولب المركز ، أذكر امتداد سوق الصيارفة القديم المباني على جانبيه ، وتوالى



القباب ، فلا يتكشف لى منه إلا بمقدار تتابع خطاها ، وإذا توقفت وتراجعت برأسها ، وهفهف شعرها الجميل ، فإن رؤيا ذاكرتى تتوقف معها وتجول صوب ماكانت تنظر إليه ، حتى إذا خطت فى السوق المغطى تبعتها خواطرى ، وشرعت فى ملاحظة البنيان ، إذ أستعيد مدرسة مير عرب التى تقت زمنا طويلا لرؤيتها ، والوقوف على معمارها ، أراها بداية عند مدخلها ، تلج إليها بقامتها السامقة ، تتمهل عند الجدران المنمنمة فأتمهل ، ومن مركزها أرحل هنا وهناك ، أما الزاوية التى اختارتها لتنظر منها إلى مئذنة كش الصاعدة إلى ذروة الفراغ ، صوب لب الأعالى . فنفس الزاوية التى استعيد منها مرأى المئذنة الآن ، المئذنة وهى متواجهان ، ومابين عينيها والبنيان الملتف حوار وخطوط اتصال ، أما الساحة التى يخيم عليها هجير قديم ، وفراغ خفى . فتوشك أن تردد أصداء الأقدمين الذين عبروا ، وتوقفوا هنيهات أو حقبا ، الذين قدموا آمنين ، أو الذين هرعوا ، أو الذين جاءوا عنوة غازين ، ومنهم ، سيد المجتاحين ، جنكيز الذى لا أدرى من أية زاوية تطلع إلى مئذنة كش راكبا فرسه ، قبل أن يستبيح المدينة ويطلق فيها جنده فيخربوها ، فكأن هذا كله يا أخى لم يصل إلى زماننا إلا لتقف عليه هى ، ولتقع عليه عيناها ، أما مدرسة مير عرب ، فبرغم بهائها وسموقها فكانت تنقص عنصرا ، لم يكتمل لا بوقوفها فى باحتها ، وتأملها المتمهل للنقوش ، والآيات ، والعبارات ، وانتظام الأبيات ، فكأن الذين صاغوا التصميمات فى الحقب البعيدة ، الذين أشرفوا على تشييد تلك

العمائر ، استطلعوا النجوم وأهل الخبر فأنبأوا فى حينه بمجىء تلك البنية ذات يوم ، فراعوا ذلك ، وانتبهوا إلى العنصر الناقص ، حتى إذا وفدت إلى عالمنا ، ونمت ، وشبت ، ورحلت ، اكتمل البنيان ، وتضافرت العناصر ، لو أنك بصحبتى واشهدت تجولها فى القصر الصيفى ، انثناءها عند المنحنيات ، وسماحة ملامحها عند نظرها النقوش لأيقنت أن المكان لم يشيد إلا لسعيها هذا . ولما خطر لك ما أظنه سيجول بذهنك لحظة قراءتك هذا ، أنى مبالغ ، أبدًا يا أعز صاحب أبدا ، اعلم يا أخى أننى فى حلبة الرقص طاف بى ماجربته . ذلك الترقب الذى يلزمنى عند جوازى عبر مداخل العمائر القديمة ، والممرات المؤدية ، حيث الصحن الفسيح بعد الممر المدهلز فكأنه الفرج بعد الضيق ، أو اليسر بعد العسر ، كنت أدع نفسى فى مساجد بخارى لأرصد توالى المشاعر علىَّ خاصة عند دخولى ، كنت أشرع حواسى لالتقاط روائح المكان ، فلكل معمار رائحته الملازمة ، التى تمنحه خاصية ، وخلال هذا كانت هى متداخلة بشتى العناصر ، انبهارى بالواجهات السامقة لم يأخذنى عنها ، ونفاذ العتاقة إلى صميمى لم يغيبها عنى . كذا مقارنتى لحظات الدخول ، بدخولى إلى قبة قلاوون وضريحه ، أو إلى مدرسة السلطان حسن ، أو خانقاه برقوق المشيدة من توالى الأيام . المدثرة بصحراء تختفى رويدا أمام نمو المدينة ، هذه الخانقاه التى أعشق ، ملاذى من هجير عصرى وزمنى ، عند اقترابى الأول منها لا أدرى ، ولا أجد تفسيرا لالحاح حضور هذه الخانقاه بالذات

عليَّ ، ولحظات قعودى عند الظهر متطلعا إلى إحدى القبتين اللتين تتسلقان الفراغ العلوى العظيم . ربما ليقينى الخفى ، إننى سأخلو إلى ذاتى هناك واستعيد هذه اللحظات عندما تصبح زمنا مندثرا ، لا أقدر على استعادته ، وعندما يتزايد ضجيجى المكتوم ، ويشتد كلمى !.

اعلم يا أخى ، أننى بعد أيابى ، وبدء وجدى ، حاولت جاهدا استعادة ملامحها فعجزت ، حتى الصورة الوحيدة ملك يمينى لم تسعفنى ، بوثوق أقول لك إنه مامن صورة أو لحظة مستعادة يمكن أن تدل عليها ، أو تظهر بعضها من جوهرها ، فى كل لحظة تبدى مظهرا ، وعند كل التفاتة تظهر جانبا ، ولحظة انتقالها من وقت إلى وقت تسفر عن حضور مختلف ، فبأيهم استدعيها عندى؟ وبأى رسم أقربها منى ؟ وما جهدى كله بعد نأيى ، إلا الاقتراب من هذا الحضور المتغير ، المتوالى ، المفاجئ بما لم يدر به توقع ، المحاولة وعرة ياأخى ، أيمكن تلوين عبير الزهرة؟ أنقدر على رسم مسار تغريد الطير؟ أبوسعنا اقتفاء أثر لحظة ولت ؟ تتوالى ملامحها ولا تظهر ، فى كل لحظة تولد من جديد ، بعض من مكنون نظرتها مصون فى صندوق غرارة قلبى ، لكننى عاجز عن تمثله بعينى عقلى أوقن أننى لن أستعيدها حتى وإن التقينا مرة أخرى ، فما كان منها كان ، وما سيجىء سيجىء ، النظرة الحيرى أطلت وتلملمت ، والطلة الوجلى قفلت وانتهت ، والابتسامة الرائقة كانت ولن تكون حتى وإن دار الوقت دورته ، وتذللت العقبات ، وأذنت الظروف هذا من

عوامل مرارتى. غير أن لهذا الهم موضعه، فلماذا أتعجل؟ لماذا أثقل عليك؟ جنبك الله ياأخى كدوراتى. أما الآن فإننى منثن إلى ماكنت فيه، مطلعك على تدفق رقصها، على اضطرابى، على ميلها ونصحها، أن أدع جثمانى على سجيته، ألا أكون عصبيا لكن هل تفك كلماتها ما عقدته سنون طوال، ولما أبدت ملاحظة أننى كنت أبدو رائعا فى العصر، عندما واجهت البنية الأوزبكية تمهلت. كنت دانيا منها. محيطا خصرها بيدى، ولأنها النواة وأنا الجزىء، كان لابد أن أدور حولها. استعدت رجلا صعيديا شهدته ذات شتاء يرقص فى ساحة معبد الأقصر أثناء مولد سيدى أبو الحجاج رضى الله عنه وأرضاه. كان رقصا عجيبا، متدفقا، رجوليا شامخا، قلت لها اننى لا أتقن الرقص. إنما دعوتها لأننى رغبت فى القرب منها. قلت إننى لم تتح لى فرصة حوار أو حديث إليها وكنت مشوقا إلى التلميح ببعض مغاليقى، عند هذا الحد توقفت فجأة فأوشك الآخرون على الاصطدام بى. لم أعبأ، تعرف ياأخى أننى عندما أنوى أمرا لا أتقاعس، لا أرتد خطوة، لا أحسب الربح أو الخسارة، فما البال وقد بدأ خوض اللجة؟ نطقت بما يدل على ما بدأ عندى، هل بدت عليها دهشة؟ ربما. هل بوغتت؟ ربما، ما أدريه أنها أجابتنى بهدوء راسخ.

«وكيف أصدقك؟»

أوشك كل جواب على مغادرتى، خفت نفاد زادى من الأحرف، صرت نبضا. وتبسبست خفقا، بذلت الأقاصى حتى

نطقت ، قلت إن دليلى هو حالى ، وليس لى إلا السعى ، ولها الرفض أو القبول فلتمتن أو لتغدق بغير حساب !.

قلت إن الزمن غير مساعد ، والوقت ضاغط ، والبراح ضيق فجل اعتمادى واتكالى على سلامة أحاسيسها وصفاء قدرتها على التلقى ، ذاك حسبى ! نظراتى اشتبكت بنظراتها ، أنا ساع وهى مترقبة ، هنا رصدت أمرا يستعصى على الإدراك ، كنت فى لب فلكى ، وعين توقيتى ، ومن حيث لا أدرى أبحر مبتعدا عن مركزى القديم ، أدنو صوبها هى القادمة من قلب المجرات سحيقة البعد ، التى لم تكتشف بعد . ألا تهيم النيازك والشهب حتى إذا دنت من مجال للجاذبية يحس ولا يرى ، يبدو أثره ولا يمكن الإمساك به ، تهوى إليه ؟ فمنها مايدور إلى أبد أبيد ، ومنها مايحترق قبل ملامسة سطح الفلك ، ومنها مايستحيل بعضه ضوءا ، ويسقط ماتبقى منه ، وقد كنت أنا هذا كله ، فأنا حائم ، ماض ، دوار ، مأسور ، محترق بذاتى ، منتقل من كينونة إلى كينونة ، لا راد لى ولا كابح ، حتى إذا أفضيت ، لمحت فى أفق عينيها بادرة مجاوبة ربما كان طيفا أدق من أن يرى ، ربما ميلاد رائحة ندى ، لم يغب عنى ، مع أنه انتهى لحظة بدئه ، إلا أنه وصلنى فبدأ عندى وكفى وصلصلت زلزلة ! خبطت اليابسة بقدمى ، فتفجر منى عهد قديم ، وبدأ تدفق ! درت حولى ، ملت علىّ ، أقلعت تجاهى ، تدفق قلبى المرهق يعدو أثرى محاولا اللحاق بى ، أما الموسيقى المتفجرة فولت ، صارت ورائى ، لم تعد مطاوعة فتلاشت الكينونة ، ولاحت

الحضرة ، أما هى فراسخة ، ثابتة فى جوهرها الدرى ، تقف مائلة قليلا إلى الوراء ، حضورها فى عل ، دائما يا أخى مطلة حتى وإن أقعت ، جاء صاحبى ، قبلنى ، قال إننى كنت رائعا ، عدت إلى مقعدى أجرجر خطاى ، قعدت ، تتلاحق انفاسى ، ثبت منظرى فكأنى لم أتأجج ، وعندما عاودت وجهتى إليها رفرف ماتبقى من قلبى ، تلك أبتسامتها !.

فيما بعد تساءل صاحبى، لماذا كنت أبدو حزينا؟ لم أجبه فلم أكن أدرى ، بل أننى لم أدركيف انقضت اللحظات التالية ، حتى انصرف القوم ، وخبت أضواء المطعم ، خرجنا إلى صالة الفندق أربعة ، صاحبى ، وشاب من أهل البلاد يتقن لغة لاوس الآسيوية وأنا : ومن قبل ومن بعد هى ، مشت أمامنا ، لها صدى وترجيع ، أمام المصعد التفتت فجأة متسائلة ..

« ستنامون ؟ »

كنت مكدودا ، كنت أتشظى بحزن غامض ، غتيت ، كنت أرغب فى الخروج إلى بخارى ، بخارى الزمن القديم ، غير أن مفازتى موحشة ، لذا ملت إلى الانفراد بشجنى ، يائسا من الظرف والوقت ، أجاب صاحبى ..

« لماذا لا نتم السهر؟ »

كأنه يؤكد اقتراحها ، تضمن تساؤلها اقتراحا بمد السهرة ، واستنكارا خفيا لشروعنا فى النوم . حمت ببصرى حولها ، مطرقه ، طالعت منها جانبا لم أقف عليه ، بدت ساهمة ، راغبة فى تجنب أمر

ما . أو الابتعاد عن ضجر يخصها . إذن ، فى الأمر غصة ، فى سماء الكون غيمة ، فى صفاء النبع كدر ، أبدى الشاب متقن اللغة اللاوسية حماسا ، ولما طال صمتى توجهت إلىَّ مباشرة بالخطاب .

« أطلب إليك أن تجيبنى .. » .

ولم يكن بوسعى إلا أن أمتثل وألبى !.

قُــــرْبَــى

أدام الله يا أخي جميل لطفك ، وأتم الله خطو سعيك كما تشاء وتبغي ، أقصى عنك الوحشة ، وأدام لك قربى من تهوى ، اعلم ياأخي أن في الجماعة رحمة ، وفي التئام الشمل أنس ، وفي الاتصال دواء وبقاء ، في الانقطاع عدم ، لاأذاقك خالقنا مر الوحدة وقسوة الانفراد ، تبعتها والليل موغل هنا ، مازال في بدايته بمدينتي ، هنا زمني المؤقت ، وهناك أيضا ، أما داخلي فتوقيت خاص ، لايدري كنهه أحد ، صعدنا إلى الطابق الثامن ، من النافذة العريضة التي تتصدر الردهة أقلعت صوب المدينة ، المعالم مبهمة ، والحدود منطمسة ، المدن لاتفصح عن مكنونها ليلا ، غير أن ما تأملته خلال جولتنا النهارية سهل لي مرفأ أبحر منه ، حتى كدت أصغي إلى حداة القوافل الساعية إلى الصين عبر طريق الحرير ، أوشكت على التقاط ركض خيول الغزاة ، سماع انهيار الانقاض ، وبقايا المعمار تتلملم من جديد ، فكأن دمارا لم يقع ، وغزوا لم يحدث ، رحت استعيد هدوء المقهى القديم ، والأغصان المدلاة التي لايمكن رؤية الواجهات السامقة إلا من خلالها ، فعاد

نفر من القوم فوق المصاطب الخشبية وأمامهم أطباق الزلابية ، وددت لو شاركتهم ، لو قضيت فى الجلسة مدة ، لكن لم يدم تطلعى ، لمس صاحبى كتفى ، قال إن الدقائق العشر انقضت ، كانت قد طلبت منا الانتظار هذا القدر حتى تتهيأ صاحبتها التى تشاركها غرفتها ، مضيناعبر الممر المؤدى . طرقت الباب . بدت ، تسطع فى المدخل الضيق ، ترتدى قميصا قطنيا شديد الالتصاق بجسدها ، بنهديها النافرين القاسيين. لم تكن تحيطهما بمشد غير أننى لمحت دائرتى حلمتيها ضاجتين من خلال النسيج الرهيف ، مشرعين ، منهما تنبعث ايماءات لا تحصى ، تخلت عن القميص الصوفى الفضفاض ، كان يحجب مايبدو منها الآن ، ما أطالعه من استدارة ملساء لكتفيها ، أما خصرها فبلغ من دقته أنه أوشك أن يكون رمزا لماذا تخفى جمال تضاريسها ؟ أتتعمد وهى مكلفة بمصاحبة غرباء وما من سابق علاقة بهم أن تموه دفائن كنوزها؟ إذن.. ماذا يستر هذا البنطلون القطنى ، أخضر اللون ، رجولى التصميم؟ لا إجابة عندى ، فلم أكن قادرا على إدراكها جملة ، علىّ انتظار الأوان المواتى ، وهذا قد يأتى أو لا يأتى ! علىّ انتظار الزمن المناسب لجريان الماء صوب جذور النبات ، الماء يا أخى يهب النماء والحياة للزرع ، ولكن هذا الماء عينه لو غمره فى توقيت مخالف سيقتله ، يذويه ، كل شيء بقدر فلنتذكر ! أدركتنى راحة عند ولوجى الغرفة ، مساحة ضيقة ، فى المواجهة باب يؤدى إلى الشرفة بجوار المدخل سرير ضيق لايتسع إلا لشخص واحد متمددا ، فوقه

قعدت ناتاشا زميلتها تلك الليلة ، دقيقة التكوين ، هادئة ، ابتسامتها كقرنفلة ، تومئ ولا تتكلم ، قد تلفظ كلمة أو كلمتين ، لكنها طرف أصيل فى الصحبة ، بجوارها قعد الشاب النحيل ، من يتقن لغة لاوس ، قال إنه تطلع يوما إلى الخريطة ، لفت نظره موقع تلك الديار فى آسيا . بلد ناء عنه ، بعيد ، شغله ، كيف تبدو أرضه وجباله وأنهاره وقبل هذا ناسه ؟ حتى إذا التحق بالجامعة ، بمعهد اللغات الأجنبية فرح وسر إذ لقى امكانية دراسة لغة لاوس وثقافتها أمضى أعواما أربعة ، بعدها صار يصحب الضيوف القادمين من البلد البعيد ، ومما سره وأرضاه سماعه ثناءهم عليه لإتقانه لغتهم ، هذا المعمارى العجوز قال له صباح اليوم ، أنت تتقن لغتنا أفضل منا ! مازال ينتظر الفرصة لشد الرحال إلى لاوس .

فى الحجرة مقعدان ، أحدهما قريب من الباب المؤدى إلى الشرفة وهذا ماركنت إليه . كنت قادرا من خلال الزجاج أن أرى الليل البخارى العتيد . أما صاحبي فجلس فوق المقعد المجاور للسرير الثانى ، الممتد بحذاء الجدار ، فوقه تربعت ، فى الركن منضدة صغيرة ودفاتر وأوراق ونشرات سياحية ، فوق الجدار صورة لأحد أبواب مدرسة مير عرب ، طلاء الجدران وسط بين الأصفر والبنى ، يمكن القول إنه فى لون ثمر النارنج .

أننى أطوف بك . وأصف لك ، ويمكننى المضى ، فأذكر لك أدق الموجودات فى تلك الحجرة التى ضمتنى وإياها . كنا خمسة ،

لكنه أول مجلس يجمعنا ، صحيح هذا جمع ، لكن إذا نما الأمر واكتمل السعي سنصير اثنين ، ثم واحدا ، لايدرى أحدنا ذاته من كينونة صاحبه ، كنا خمسة مظللين بالليل البخارى ثقيل الحضور ، كثيفه ، قبل أيام معدودات كان كل منا فى ناحية ، وسعينا شتى ، رحت أحوم فى الغرفة مؤجلا الدنو منها بنظرى ، لو سددت البصر لرسوت ، ولو بدأت الحديث عنها والوصف ، صعب علىَّ ماعداها هى المركز وسواها توابع ، غير أن ملامحى لم تعكس مايدور داخلى تعرف ياأخى أنه لقسوة ما مر بى ، صار عندى مسافة بين الظاهر والباطن ، غير أننى مهما أجلت أو تباطأت فصيرى حتما إليها .

اعلم يا أخى الأعز ، أنها عندما تربعت ، لما صارت فى هذه الوضعية آلت إليها الصدارة ، دار حولها المكان والوقت ، صعب علىَّ يا أخى أن أفصل لك الحديث ، لكننى سأحاول تجسيد لب ماجرى وكان ، أنت يا أخى سيد العارفين باللحظات الحميمية ، وليالى سهرنا فى المقاهى ، ووصلنا المغيب بالفجر والليل بالنهار ، لم تزل ماثلة فى بالى تعرف أننا إذ نستعيد ماقيل بعد الانقضاء نذكره فى جملته وليس فى تفصيله . نراه بعد انقضاء الوقت بمعناه وليس بنصه ، وبعد توالى المدة فى أثر المعنى يتضاءل المشهد ، تذوى التفاصيل، لايتبقى إلا الرحيق، الشذا، سنا هيّن، واهن، من لحظات مرت بنا كان الواحد منا إذا شهق خلالها شهقة لفرط انفعاله ، يوشك أن يتلاشى هلكا ، وإنى لمذكرك ببعض مما ألمت به ، فالآتى لما يغيب عنى والتغير يحوم حولى فى ذروة الثبات ،

اللحظة فى آنيتها عدم محض لذا عند مرورى بها أطالعها من بعد قصى ، فإما استعادة لما أنقضى وإما استحضار لما لم يأت بعد ، هكذا أرقب الانفصال فى وهج الاندماج ، وأرصد العدم فى ذروة الوجود ، وهذا مايقضنى ، الثبات المستحيل ، والتغير القاهر ، هكذا أطلت النظر إليها ، ليس بعينى فقط ، إنما بقلبى ، بخواطرى ، بشواردى ، بوارداتى ، أجتهد فى النفاذ إلى ملامحها ، حتى أستعيدها عند نأيى عنها ، الرحيل حتمى ، لم أكن أحاول استيعاب ملامحها الحية ، الجميلة ، المتدفقة بالطلاوة ، ولكن حضورها أعنى ، هى فى اللحظة ماثلة أمامى ، ولكن اللحظة إلى انقضاء . بعد انصرافى إلى غرفتى ، كيف ستبدو؟ كيف سأستعيدها؟ سأراها فى اليوم التالى ، غدا ، قال قائل يوما ..

لا مرحبا بغد ولا أهلا به إن كان تفريق الأحبة فى غد

ولكن شاء القائل أو لم يشأ ، أنا ، أنت ، هذا أو ذاك ، فالغد آت لاريب ، ومنقض ، هكذا بعد الغد حتى بعد البعد ، إذن .. كيف سأستعيدها بعد إيابى إلى موطنى ؟ بعد أن تباعد القارات مابينى وبينها . كيف سأذكر هذه اللحظات عندما يضعف حضورها فى ذهنى ، وتصير ملامحها تلك مختلطة بخطوط ولحظات شتى ، هذا صائر لا محالة ، أليس مصير كل تلاق إلى فراق ؟ والفراق بداية العدم ، وقد بهت عندى ماظننته لن يبيد أبدا ، أذكر أيام طفولتى وصباى يا أخى فأنثنى خشية أن اتصدع ، أيام لمتنا تلك استثناء فقد كنت غيا لا أعى دبيب الأيام ، أو سريان الوقت ، لم أرقب

الآتى ، ولم أنتبه ، حتى إذا شببنا وتدرينا ، توزعنا على الجهات الشتى ، فصار كل إلى سبيله ، وغاب عن العالم أب ظننته مخلدا . وام وددت يوما لو مت قبلها ، أما شقيقى فغائب هناك وراء المحيط ، له حياته التى لا أعرف عنها شيئا . أبناؤه الذين لم أرهم إلا فى الصور ، فيا أخى إصغى إلى محب لك ، لاتدع لحظة تولى دون النظر إلى ولديك . وأطل الجلوس إليهما ، ولا تدع الدنيا تأخذك عنهما ، فغد قريب سيبدأ فيه اغترابهما عنك ، سيصير لكل منهما حياته ، وبدء كل منها يعنى انزواء بعض منك فانتبه ، لا أروم تكديرك يا أخى ، فأنت تعلم مقدار محبتى لإبنيك ، وقضائى الوقت معهما مما يهدهدنى ، ودخولى دارك له ألفة فكأنها دارى . وعلى أية حال لايكون الثمر إلا بعد تفرق الأغصان وابتعادها عن الجذع ، الثبات والتغير يا أخى لب القضية ولغزها ، فهل سيرى سعينا ؟، اعلم يا أخى أن تعلق بفن المعمار واتقانى له ، وطوافى بمشارق الأرض ومغاربها للوقوف على شواهده وروائعه ، إنما بدافع مما يلح علىَّ فإذا كان الدهر لاراد له ولا مانع ، إذا كان يجرف كل شىء ، فلنحاول إبطاء تأثيره بالمعمار ، بالحجر ، لذا قال القائل قديما ، لو أن الفتى حجر ، ولكننى أعى أيضا أن الحجر مصيره إلى بلى ، فماذا أنا فاعل ؟.

فوجئت بها تقول ..

« لماذا تبقى بعيدا ؟» .

فرحت كطفل لأنها خصتنى ، أولتنى اهتماما ، لمحت شرودى ،

تطلعت إليها شاخصا ، ممتثلا ، وإذا بها تفارق قعدتها ، تنبثق فى وسط الغرفة ، تتقدم منى ، أقوم واقفا ، تمسك حافتى مقعدى ، تدفعه ، تعتدل ، تفرد طولها البديع ، تشير كملكة تصدر أمرا ..

« أنت هنا ! ».

تلتفت إلى صاحبى ، لم ينتظر دعوتها ، تقدم بمقعده ، مبتسما ، موقنا ، أنها راغبة فى اللقاء ، ق التقارب ، فى تدانى المصائر ، طوقت سوقها بنظرى ، وددت لو ثبتت هذه اللحظة فى وعيى . بينما ألح علىَّ تساؤل ، أين كانت هى فى مثل هذه اللحظة ، العام الماضى وأين كنت أنا ؟، بل أين كنت لحظة مولدها عام ألف وتسعمائة وثلاثة وستين ؟. كانت نفرا فى القافلة الوافدة من العدم إلى الوجود. ويوما مالا أدرى كنهه الآن. إذ لاتدرى نفس بأى أرض تموت ، عندما أقلع من الوجود إلى العدم . أين ستكون هى ؟ بأى أرض ، بأى محلة ؟ أستكون ساعية ؟ أسيطوف أثرى بخلدها ؟ ، كنت فى مواجهتها دوارا فى فلكها ، وفى الوقت عينه بى حس من شد خفى المصدر ، لايبين يكاد أن ينتزعنى منها ، كنت موزعا بين ما أنا عليه وما سأكونه ، مفقود حاضر ، مفقود بين لحظتين ، حاضر فيهما معا ! . اعلم يا أخى أن إخوانا لنا من زمن بعيد قالوا فى رسائل لهم ، إن الزمن ينقسم إلى سنوات ، سنة مضت ، وسنة لم تأت بعد ، والسنة تنقسم إلى شهور ، شهر مضى وشهر لم يأت بعد ، وأن الشهر ينقسم إلى أيام ، يوم مضى ، ويوم لم يأت بعد ، وأن الأيام تنقسم إلى ساعات ، ساعة مضت وساعة لم تأت بعد ، والدقائق

منها ما مضى ومالم يأت بعد ، والدقيقة تنقسم إلى ثوان ، ثانية انقضت ، وثانية لم تأت بعد ، إذن أين الزمان ؟ وهكذا مضى منى مقدار ، ومقدار لم يأت بعد ، فأين موقعها هى منى ؟ تعود إلى مرقبها ، إلى موقعها ، إلى الحيز المكانى الذى يشغله وجودها الحسى ، بدأ فيضها ، لا تستقر على وضع واحد أكثر من دقائق معدودات . تتكلم فتبذل الجهد الأتم لتبدو وكأنها تخاطب كل منا ، تخصه ، تتزاحم الجمل والكلمات عندها ، يصبح النطق غير مساعد ، فتتحدث عيناها ، وملامحها كافة ، تبدو راغبة فى بوح ، فى اقتراب ، فى تلاق ، آملة أن يدرك كل منا مالم تقله ، الظلال التى يعسر لفظها ، قالت إنها المرة الأولى التى تنزل بخارى ومن قبلها طشقند ، المرة الأولى التى ستمضى فيها إلى سمرقند ، البلاد شاسعة ، ولكم ترغب فى رؤيتها ، هاهى فى آسيا الوسطى ، ومشروعها القادم إما سيبيريا أو جبال الأورال ، ستفضل القطار . الطائرة تلغى الإحساس بالنقلة ، تود الإقامة ، فمعرفة المعمار الحقة لن تكتمل إلا بإدراك البشر . عملها كمرافقة استثنائى ، اختاروها لاتقانها الانجليزية ، بدأت تتعلمها منذ الرابعة ، وهى فى الحضانة أنها تدرس الطرز القديمة ، التفتت إلىّ ، إلى صاحبى ، تعرف الكثير عن العمارة الفرعونية ..

« لماذا تسكت ؟ .. »

توقفت فجأة . حادت صوبى ، باغتتنى بينما كانت تجتاحنى على مهل ، وبقدر انبعاث بهجتى لتوجيهها اللفظ إلىّ بقدر وجلى ،

نعم .. كنت صامتا برغم موارد داخلى ، كنت أمنح منها مددا يشد أزرى بعد بدء ابتعادى ، سؤالها المفاجئ ذكرنى بى ، كنت مثلها فى تدفقها هذا ، أيام لم أكن أعبأ بساعة هجوع معينة ، لاأشكو خللاً لا أقاسى وحدة ، أيام اجتماع الصحب ، واكتمال اللمة ، انقضاء الليل ونحن سهارى ، يتكشف الخيط الأبيض من الأسود وحواراتنا لم تنفد والأمر فيه بقية ، وقد أبدى اقتراحا لم أعد له العدة ، أن نمضى إلى شارع المعز . نجوس فى ظلال المبانى العتيقة . أقف بين الصحب ، أشير إلى الواجهات السامقة ، أوضح الفرق بين مئذنة قلاوون ، ومئذنة برقوق ، أبدو منفعلا ، حتى قال صاحب لنا سورى يوما : أنت تضفى حياة على الجدران الرمادية ، حتى لتوشك الحجارة على النطق ! ، لماذا تسكت ؟ لم أجبها مباشرة فمط شفتيها تعجبا وحيرة ، واستمرت ، والدها أستاذ جامعى ، متخصص فى الاقتصاد ، أما والدتها فطبيبة ، باحثة فى علاج الأورام .

كنت يا أخى أواجهها بتراث مثقل ، وحمول جمة ، وحزن غيبت ملازمنى طوال السنين الأخيرة ، أورث هذا عينى ظلالا ، وكسى نظراتى غمامات رمادية ، كان فيضها ينبهنى بقوة إلى أى حد أوغلت مبتعدا . عرفت فيها مثل تدفقها هذا ، وددت لو أعرف كيف ترانى من خلال موروثها وتكوينها ، كيف أبدو عندها ؟ متمنيا ان تدرك بعضا مما يعتمل داخلى ، وددت لو انفردت بها دقائق ، لو فجرت بعضى بين يديها ؛ لكننى لم أرها إلا فى جمع ، هذا صاحبى يبدو ودودا ، مبتسما ، يتقدمنى بأكثر من عشرين عاما ، عرفته

متفائلا دائما والظرف العاتى غالب ، فياضا ، قادرا فى الحال العاتى . وإنى لمحدثك عنه يوما إذ خاض انتخابات نقابتنا ، غير عابئ بما يتهدده من أخطار . متصديا لذلك المهندس المقاول المدعوم وقتئذ من كل سلطة ، وأحد رءوس الفساد ، خطب محرضا ، وخط الكتيبات كاشفا مايجرى فى الخفاء ، وذكر الأرقام ، وأتى بالأدلة ، حتى قلت يوما مادام فى قومى من هو مثله فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون وعندما زج به فى السجن لم يهن صوته ، ربما لأنه مازال فى جماعة وصحبة ، ألم أقل لك يا أخى إن فى اللمة رحمة ؟ أما قناعاته فلم تدركها الشبهة ، لم يصبها عطن ، ولم ينل منها وهن ، كنت أرقب قدرته على المجاراة والتفاعل ، محاولا قدر طاقتى تتبع مايجرى بينهما من حوار . لا أدرى مسار الحديث الذى أفضى بها إلى القول بأنها تزوجت فى الثامنة عشر ، إذن .. ليس كما أخبرنى الهندى . عندما همس لى محذرا أنها زوجة جديدة ، بما يعنى اشتعال الجذوة ، إذن .. كانت تصرح بما يدفع عنها الشروع أو المحاولة ، قالت إنها لم تر الآثار الفرعونية إلا فى الصور ..

« هل رأيت الكرنك ؟» .

أومأت مبتسما ، فرحا أنها تنطق أمرا يخص قومى ، لكم تود دخول الأهرام . والوقوف بين يدى (أبو الهول) ، وزيارة معبد ادفو قالت إنها قرأت عن ظروف بناء هذا المعبد فأحبته ، بدأ تشييده والحضارة تذوى ، والعقيدة مطاردة ، أتمه القوم ليلا .

« هل زرته ؟».

ينبهني صاحبي ..

« فاليريا تسألك ..» .

أهز رأسي نفيا . تبدى تعجبا ودهشة ، يقول متقن لغة لاوس الهادئ الصموت :

« فاليريا اسم له أصل عربي ..»

نتطلع مستفسرين ، تشهر أصبعها ..

« يعني ليلى ..»

أرضى إذ أجد وشيجة قربى بينها وبين ناسي ، طال اقلاع بصري تجاهها ، بدأ ضوء خفي مختلف يشع عبر وجنتيها ، أيقنت أن أجدادها الأقدمين لم يتناسلوا إلا لتصل هي إلى وقتي ، وتقرع مغاليق بفيضها ، فكأني ماجئت إلى بلاد ماوراء النهر ، مادنوت من نهري سيحون وجيحون إلا بحثا عنها ، لاكتشف عين الحياة التي خلقت منها ، أبدا .. لم تكن هذه نطفة فعلقة ، لم تكن يوما بين صلب وترائب . إنما خلقت من ماء الحياة ، منها تتدفق الحيوية ، غير أنني لم أحتس منها بعد ، مع مضي الليل كنت أتطلع إليها ، مأخوذا عن كل وجود سواها ، فلو تمثل العبد الذي أوتي من اللدن علما ، وقتل أحد الموجودين لسبب يعلمه هو لما استفسرت ، لو هدم الجدار القائم لما سألته ، لو أشعل النار في الأفق لما انتابني فضول هي فقط في مواجهتي ، أتلمس طرقا إلى رائحتها ، أقلع منها إليها ، فهل يدرك الكوكب انجذاب توابعه إلى فلكه ، كنت أترقرق ، وعناصر

منى تتبدل إلى مالا أعهده ، حتى إذا بلغت حداً من التوارى والانطواء داخلى ، وايقنت أنه لا عالم بعد اليوم ، شبت طفرة من طفراتى ، واندلعت إحدى ومضاتى ، فارقت مقعدى فجأة ، وحططت بجوارها ، أهدتنى نظرة جانبية راضية فأمنت ، احتفظت بمسافة تمكننى من النظرة الشمولية ، أما هى فغيرت على الفور من وضعها ، ثنت ساقيها تحت وركيها ، فانقلبت فى حركة مباغتة لتجثو على أربع ، بدأ ظهرها رحب النغم ، أما حضورها الحسى فازداد توقدا ، وما زاد الأمر صعوبة انحسار القميص إلى أعلى ، وتراجع بنطلونها قليلا ، مما كشف عن وادى ظهرها المؤدى إلى مفرق ردفيها ، ولمجرد أننى تطلعت فكأننى لمست ، دنوت وتنديت وقلقل هذا حسى ومعناى ، لاحظت أن صاحبى أدرك ما أدركت . فسدد نظرًا نَهِمًا ، لم يخفه ، ضايقنى منه هذا ، وددت لو أنه لم يفعل ، تمنيت لو غطت ما بدا مع أن ولايتى منعدمة ، إلا أنها لم تركع إلا لثوان ، فردت جسدها ، فكأنها بعثت من داخله جسدا آخر ، حركت ذراعيها ، بدت على حافة الرقص ، غير أنها ثنت ساقها تحت الأخرى ، اتخذت وضعاً بوذيا ، وتحدت الحاضرين أن يأتوا بمثله ، بادر صاحبى ، بدأ المحاولة لكنه لم يتمها فارتحت ! تقدم متقن اللاوسية ، إلى حد ما نجح إلا أنه لم يحتفظ به ، بينما كانت هى كما هى ، أنا لم أشرع ، أما ناتاشا الصامتة فصفقت ، عندئذ أنهت وضعها ، بدأت تغنى ، كان صوتها فتيا ، يتضمن رقة ، وشجنا خفيا ، تابعناها متمايلين مع النغم ، وهنا بدا منها تجدد آخر ،

لم يدركها الوهن أبدًا ، أما عيناها فازدادتا تألقا ، أقول لك يا أخى إن العتمة لو أرخت سدولها لضوت هى ، مع قربى منها دام تطلعى ومحاولة تتبعها ، فاصبر علىَّ يا أخى لو فصلت وأطلت ..

فتارة أراها صاعدة ، متجهة إلى منبع ريح الصبا ، وتارة إلى حر الجنوب ..

مرتفعة إلى أوج . هاوية كشهاب دنا أجله ، وحان احتراقه ، حتى إذا أوشكت ، شهقت فيعجز الفراغ عن استيعابها ..

تدنو من البروج كلها ، فتارة للبروج النارية ، ومرة للترابية ، وأخرى للهوائية ، ثم تنعطف إلى المائية ، إلى المتقلبة ، إلى الثابتة ..

ألمح عندها دوران الفصول ، هى ربيع ، هى صيف ، هى مطر ، هى صحو ، أراها متفرقة ، أراها متجمعة ، أحيانا ناظرة ، وأخرى مولية ، منصرفة ، مقبلة ، مجتمعة ، واقفة ، منبع ومصب !

قريبة حتى أوشك على تنسم ماتجود به مسامها .

بعيدة ، قصية ، مستحيل ادراكها ، فكأنها مصدر كل اغتراب ، هى بجوارى ، طفلة تلهو ، وانثى ضاجة ، فوارة ، مثيرة للكوامن . تطرح ألغازا وألعابا ، ثم توغل فى نقاش عويص عن وجهة المصائر وغايات الأمور الخفية ..

رأيت فيها مراحل فى لحظة ، وأعمارا شتى فى كينونة ، أما جسدها فعمار متكامل ، مبسق ، علو كقبة بانتيون روما ، ورشاقة

تستعصي على اللمس كمنحنى مدخل مدرسة السلطان حسن ، مهيب كإيوان كسرى .

« لماذا تنظر فى الساعة ؟» .

اعلم يا أخى أننى لم أنتبه إلا بعد أن فاجأنى احتجاجها ، أنها الخصال القديمة ، فى تمام القرب استدعى اكتمال البعد ، وفى ذروة النشوة افتح عينى لأرصد ردود الفعل على وجه من اقترن بها ، وألج جسدى فى جسدها ، فى هذه اللحظات أدركت اقتراب الفجر ، ولهذا بدون أن أعى تطلعت إلى الساعة ، والهواجس عندى تبدأ مع اقتراب الفجر ، حيث اضطراب أنفاسى ، وإصغائى إلى أصوات تصدعى واقتران ذلك بتوقع الموت ، يضطرب قلبى ، وتتداخل أحوالى ، ولا أدرى لماذا أوقن أن رحيلى سيكون فجرا ، ألأن ميلادى كان فجرا ، أم لأن اقلاع والدى تم فجرا أيضا ؟ فى الفجر أتوجس خيفة ، وأصغى إلى دبيب اليوم القادم . متسائلا ، هل أنا بالغه ؟.

تطلعت إلى صاحبى ، فهم عنى ، أومأ ، صاحت محتجة ..

« ستنصرفان ؟»

لزمت صمتى ، أجب صاحبى ..

« لابد أن تنام ناتاشا ، لابد أن ننام لو ساعة ..»

ثم قال ..

« أمامنا غدا سفر وجولة ..»

تلفتت إلى ناتاشا :

« تريدين النوم ؟» .

تجيب البنية بابتسامة ، وبدأ متقن اللاوسية على أهبة الكلام لكنها صاحت ..

« اسكت أنت ..» .

رق صوتها فجأة ، لمحت فيه رجاء .. قالت ..

« لماذا لانخرج ونقابل النهار معا .. ثم ننام !..» .

بحدة التفت إليها ، رأيتها بين شجرتى التوليب ، أكانت تقابل النهار منفردة وقتئذ ؟، غير أن ماهزنى أمر آخر ، هذا مقترحى فى الزمن القديم .

منذ أمد كنت فى عشق عظيم ، هاتفت صاحبتى بعد منتصف الليل . مقترحا أن نلتقى بعد الفجر . أن نرى أول ضوء معا . أبدت ترددا وخوفا ، وإن أعجبها عرضى ، وفى مرة ثانية التقينا ذات صباح ، وخطر لى أن نسافر إلى الإسكندرية ، نرى البحر ونرجع فى اليوم نفسه ، قطعنا المسافة متقاربين مبتهجين ، وعندما طالعنا الموج ، والزرقة ، طربنا ، وتفاهمنا ، وعند المغيب عدنا إلى مدينتنا ، هذا مقترحى ، وإذا بالدائرة تكتمل ويتلى على مسمعى ماقلته يوما ، وممن ؟ من هذه المجرة الأنثوية ، وما أنا إلا تابع لأحد أجرامها ، فإما درت حولها ، وإما انجذبت تجاهها ، وإما أفلت من أسارها فأهوى إلى هدم ، تبدى هى الرغبة ، بل بنفس الإيقاع الذى صدر عنى يوما ، فأتردد ، بل واعتذرت وأسفت لى ، رثيت علىَّ ، أين اتصال الليالى ببعضها ؟ أين سهرنا صحبة فى المقهى

القديم ؟ حتى إذا أذن الفجر ولجنا المسجد القديم ، القريب ، نتنسم فراغاته ، وصفاءه ، نخرج منه والنهار مكتمل ، نشيطين ، أما سعينا فشتى . مامن تعب ، مامن وهن ، أين زمن الحرب عندما كنت مجنداً فى الصفوف الأمامية ، تتوالى أيام ثلاثة بدون اغفاءة . ويكفى اغماضة العينين لحظات معدودات فتجدد الجذوة ، أين هذه الأيام أين ؟ أهو السن ؟ لكننى لم أوغل بعد . أهى العلة المفاجئة . لكنها نتيجة وليست سببا ، بعدها صارت أفعالى فى الحدود بعد أن كانت فى المطلق ، لكن صاحبى هذا به أعطاب شتى ويتأجج حيوية ، أعى أن لحظاتى فى الليل البخارى هذا ستكون زادا عندما اتقلب فى وحدتى ، وأوغل فى غربتى ، كنت أعى يا أخى أن حضورها بقربى سيتوالى علىَّ ، زاد نفيس ، عزيز ، فلماذا لا أبقى ؟ لماذا لا أستجيب ! خاصة أنها هى التى تطلب ، هى من يرغب ، ألوعى أننى مهما بقيت فمصيرى إلى انصراف ؟ ألرغبتى فى الانفراد ؟.

« لماذا تريد الانصراف ؟» .

« لابد من النوم ..»

تقول بضيق .

« سيجىء زمن ننام فيه طويلا .. »

« إنى مرهق ..»

قالت :

«كل شخص فينا مرهق ..»

انتبهت إلى اتصال الحوار بينى وبينها ، أنا وهى لا غير ، كنت

يا أخي حائرا، إلا أن وقوف صاحبي، ومتقن اللاوسية. وانهاك ناتاشا البادي حسم الوضع ، وعندما آويت إلى مضجعي أيقنت من اتمام اجتياحها كينونتي ، وأن ماتراءى لي نائيا صار قريبا ، وما أصغيت إليه دبيبا صار ركضا . غير أنها يا أخي لا تزال قصية ، فكيف أتم الرسالة ؟.

إرتقـاء الكثيب

.. جياش أنا يا أخى ، وما تاريخى إلا عطاء بدون انتظار . وفيض بغير حساب . وعما أنا فيه فلم أبغ إلا الإحاطة . أليس ظلما لو أن جواى لم يلق ظلا ، وهواى لم يحدث صدى ؟ قوى عزمى . وانجذابى ، وإنى لسارد عليك حوارية دونها عارف قديم ، جاء إلى بلاد ماوراء النهر، وربما وقعت عيناه على بعض مما رأيته أو توقفت عنده ، قال الجليل واسمه جلال الدين ..

قال : من بالباب ؟

قلت : عبدك المحب .

قال : فأى شىء لك ؟

قال : أقرئك السلام أيها العظيم .

قال : فإلى متى تلاحقنى ؟

قلت : حتى تدعونى ..

قال : إلى متى تجيش ؟

قلت : حتى القيامة .

هذا لب قصدى ، أن يصلها نبأ بما عندى ، اعلم يا أخى أن



من الأشياء مالا يمكن ادراكها أو تصورها لخفائها أو دقتها ، مثل الجزء الذى لايتجزأ ، والمعنى الأول ، وسبب ورود هذا الخاطر دون ذاك ، وسر الميل إلى هذا الشخص دون غيره ، وجوهر الثمر فى الأكمام واندلاع توقى . وإدراكى أن ما أمر به مآله إلى انقضاء ، ومع ذلك لا أنثنى ، فالوعى عندى أتم ، إن نهاية الشىء فى بدايته ولحظة تهدم البنيان تتحدد عند تشييده ، أما موت الإنسان فيبدأ عند ولادته ، وكما قيل فى المعنى .

ميتا خلقت ، ولم أكن من قبلها .

شيئا يموت ، فمت حيث حييت

اعلم يا أخى أننى وقفت بمفردى مستقبلا نهارى السمرقندى الأول ، اعتدت تبدل المواقيت ، واختلاف الأزمنة . استيقظت وعندى جذوة متقدة ، هى على مقربة ، تشغل حيزا معلوما بقدر ، تتنفس هواء بعضه يعرف طريقه إلى صدرى ، أما وجهها رحْب الملامح ، فسيطالعنى بعد قليل ، كنت مستوفزا ، متأهبا ، تقدمت من باب الشرفة الزجاجى ، ذرات الماء الدقيقة مغيمة ، مسحتها فانجلت الرؤية ، فى البلاد التى أنزلها أول مرة اعتدت اغلاق الزجاج واسدال الستائر الخفيفة لا غير ، أما الثقيلة فانحيها ، أوثر مقابلة كل عنصر فى الأرض التى اطؤها أول مرة . فما بالك وسمرقند لها عندى فرادة ، وقديم صلة ، وأحلام مبهمة ، وتوقعات غامضة ، واحتمالات ربما تبدو لك مستحيلة ، ان ألقى بعض من سبقونى بقرون ، خبرت هذا غير مرة ، عندما شاركت فى

جمع جاء إلى فاس ليتدارس وسائل الأبقاء عليها ، والقيروان بتونس الخضراء عندما مضيت لأعاين مسجد عقبة السرمدى ، وعندما استندت بيدى إلى جسر خشبى فوق نهر العشار لأتأمل شناشيل مدينة البصرة ، ومن قبل ومن بعد قاهرتى المعزية التى فرقت لحظاتى عند نواصيها ، ومداخل مبانيها ، يخيل إلىَّ أحيانا يا أخى أن مامر بهذه المدن لم ينقض ، لم يندثر ، دائما أتوقع من يجيئنى ليأخذ بيدى ويصحبنى إلى غير ذى جهة لألقى الأسواق القديمة ، وحلقات الدرس فى مدارسها القديمة ، وساحاتها يعبرها المحاربون الخارجون لملاقاة الغزاة ، وإذ أجول عبر الدروب الضيقة أجهد النفس للوصول إلى ملمح مما انقضى . لكننى لا ألقى إلا الآنية !.

أشجار ضخمة تتخللها شجيرات التوليب ، تنمم الرؤيا ، تؤطر الوجود ، قبة زرقاء سامقة تولد من خلال غبش الضباب ، تحدد الفراغ ، حدت ببصرى ، ليست بمفردها . قبة أخرى تواجهها ، فيما بعد أدركت أن القباب هنا تجاوب بعضها ، فلا تدرى الأصل من الظل ، وأينما وليت وجهك فلا يقع بصرك إلا على نمنمة النقوش تجاوب النقوش ، والرقة تؤاخى المهابة . أما تدفق الخلق فلابد أن يؤدى إما إلى بوابة عتيقة . أو مدرسة ، أو مسجد ، أو ساحة انطلاق . أو ضريح يرقد فيه جليل ، تلك مدينة سيد الفاتحين ، من طمح إلى امتلاك العالم . تيمور . ولى تعليق أود لو أفضيت به إليك ، ولكن فى وقت آخر . وليس الآن . فإنى متعجل لرؤياها ، أليست باعثة جذوتى تلك ، والتى طال ترقبى لها زمناً ؟..

بسرعة أديت طقوسى الصباحية . من خلق لحية ، وغسيل أسنان . وحمام دافئ . وترتيب حاجاتى التى سأصحبها فى حقيبتى الصغيرة ، عند دخولى المطعم كان المكان خلوا منها . لمحت صاحبى ، أمامه طبق فيه بيض مقلى ، وكوب ملىء بالشاى ، ورغيف أوزبكى . بدا صامتاً ، إلا أنه محتفظ بظل بشاشة ، وطيف ابتسامة ، وعندما بدت بنية رقيقة . دقيقة التكوين ، تلملم شعرها فى ضفيرة طويلة . سخية ، أقدمت تجاهه مستأنسة ، متحمسة ، أضمرت حسدا وإعجابا لإبدائه الود تجاههن ، وإظهاره جميل اللياقة وإقبالهن عليه ، وبينما تتعاقب التعبيرات الآمنة على وجهه ، اعتصم بصمتى ، محتفظا بسمتى ، فما يبدو مغاير للباطن . أظهرن النفور منى ، لم يومئن حتى عند مرورهن بى . وهذا جعل خشيتى تتعاظم ، ألا يصل من أدور فى مجالها قبس من عندى . لم أكن أرى ماعداها ، ولا أعبأ بغيرها ، وعندما جاءت سَرَتْ ، ولما أوشكت أن تتجاوزنا ناديتها ، توقفت ، والتفتت . وأومأت ، ثم لبت ، وعندما استقرت بجوارى هدهدنى قربها ، اقتربت من حافة عبيرها الخاص الرائحة القادمة من توالى حضورها ، من أنفاسها ، من مسامها ، من زمنها ، لم أتمكن منها بعد . غير أنى رحت أحوم أحاول الطواف والقبض على مالايرى ، هذه أنفاسها ، وهذا أريج شعرها . أما الصبا فقادمة من أغوار روحها ، أثار قربها منى حنينا غامضا إلى وديان لا تقوم فيها بناية ، ولون أخضر زاهٍ ، نضر يوحى بالبلل . تبدو مهمومة ، ساهمة ، فكأنها قاست أرقا ، متطلعة

إلى جهة لاترى أما إمساك يدها بزجاجة الملح الصغيرة وإدارتها فتعنى انشغالها بأمر يستعصى علىّ إدراكه ، وكدت فى هذه اللحظة أوقن أن مابدا منها فى ليل بخارى لن يتكرر ، كانت تتجاوزنى بالنظر ، وكنت ادركها وادرك المدينة معا . إلى داخل الفندق الأوروبى التصميم ينفذ حضور المدينة . تبدو بخارى وكأنها اقلعت من الدهر ، أما سمرقند فمتباهية ، مختالة ، لاتزال فى لبه ؛ بخارى لاتتكشف للغريب مرة واحدة ، شيئا فشيئا ، أما سمرقند فتبدو بشموها ، بعمقها منذ اللحظات الأولى ، يسألها صاحبى عن المعمارى الهندى وصحبه . قالت إنهم تناولوا إفطارهم مبكرين ، وهم يجوسون الطرقات قرب الفندق ، جاء النادل ، وقف منتظرا ، اقترحت عليها الزلابية ، قلت إننى عندما أنزل بلدا أول مرة . أحرص على أمرين ، أن أطعم مما يختص به أهله ، وأن أصغى إلى موسيقاه . قلت إن موسيقى هذه النواحى حزينة ، شجية ، فيها أنين مؤلم عمره قرون . فيه صلصلة الأزمنة المندثرة ، والقيام والانهيار ، والقطع ، والائتناف ، والاحساس بالمجد ، قلت إن مالفت نظرى تلك الإيقاعات الأندلسية ، والآهات المصرية ، والأنات العراقية ، والوشى الصينى ، قال صاحبى إن تاريخ المنطقة وعر .

هنا قالت إن للمكان خصوصيته المؤثرة ..

ثم مالت تجاهى

ماهى الزلابية ؟

قلت إننى تناولتها فى بخارى أمس ، فطائر محشوة باللحم المفروم ..

ثم قلت ..

نفس الاسم عندنا . لكننا نطلقه علي فطائر حلوة ..

جادت بدهشة ، قوست حاجبيها فبدا جمال كامن ، وأصغيت عبر ملامحها إلى لحن بعيد . تائه منى ، غائب عنى ، لحن مبهم ، يؤجج حنينا ويضاعف تطلعات إلى الرحيل ، ويستدعى لحظات بهجة ، أما إنها ولت . أو لم أعشها ، أو لم يعد لها موضع فى الذاكرة المثقلة .

مضيت أشرح التقارب بين الأطعمة هنا وهناك . ولم يكن تدفقى إلا حجة للنظر ، ووسيلة للقرب ، تعلم يا أخى أنى احيانا أبدأ فلا أكف عن الحديث ، خاصة إذا كنت فى جمع بينه من أحب . اتجاوز كمونى ، فكأنى ألوذ بالصحبة ، حتى إذا انفردت ارتددت فإما وجلت ، وإما انفجرت . كانت تصغى ساهمة ، متعبة ، فكأننا تبادلنا المواقع ، فى ليل بخارى فاضت هى . ولزمت الصمت ، وفى الصباح السمرقندى هذا أطلت وأصغت هى ، جاء النادل آسيوى العينين والوجنتين ، وضع الطبق أمامها ، أقدمت حتى اغيب عن طقوس الخدمة ، ملأت كوب الماء . وقربت طبقا غير ممتلئ ، وعندما قضمت قطعة من الفطيرة ازداد شرودها ، مع المضغ بدت شفتاها مضمومتين ، ريانتين ، هما حضور الياقوت ، ودقة شقائق النعمان قمعت رغبتى فى الميل والقطف حتى لايلوح علىَّ مايشى بأمر

صبابتي وحدة توقي ، لا أدري يا أخي كيف مضى الحديث ، لكنني انتبهت وصاحبي يقول :

هل سمعت ؟.

كيف لم أصغ ؟ لكن عذري أنني كنت مولياً وجهي شطر إحدى جهاتها ، أحد رواقها ، أبديت الاستفسار . عرفت منه قبسا مما صرحت به وأنا في قلب الغيبة عنها لشدة حضوري قربها .

اعلم ياأخي كشف لك الله ماخفي عنك، ومادق فهمه عليك، أنها عندما كانت في الثامنة عشر ، أي منذ ست سنوات ، تعرفت بمن هو زوجها الآن ، هل كان مقيما على مقربة ؟ ربما ، هل كان على علاقة بوالديها ؟ ربما . المؤكد أنه هام بها . في كل صباح عند اجتيازها عتبة الباب تلقى الأرض مفروشة بالزهور . وعند المدخل الرئيسي تلقاه ، يحيطه الثلج ، ملتحفا بمعطفه . بغطاء الرأس الثقيل والانتظار والرغبة ، أسابيع طويلة لم ينقطع يوما ، لم يغب صباحا ، وعندما اقترب يوم الخامس والعشرين من مايو ، اليوم الذي جاءت فيه إلى الوجود ، وقبيل انتصاف الليل بدقائق خمس ، فوجئوا بطرق هين ، كان يقف بالباب ، حاملا باقة زهور ، قدم بطاقة خط عليها ماينبئ بدخائله . ورجاها أن تقبل ساعة دقيقة ، ذهبية الإطار ، كان يحتفل بعيد ميلادها على طريقته كما قال ، أحبت حبه لها . كانت صغيرة ، لكنها بعد اقترانها به ، رأت فيه شابا جدا . هكذا أفضت متأسية ، متحسرة ، لم تخف أمرها ، صمتت ، كأنها ودت لو أنه أكثر نضجا ، ولاح منها مابدا معبرا عن نفار . لم أعلق

يا أخى ، خفت أن أبدو غير موفق ، وإن احترمت حبه لها . ومشروعه فى التعبير ، وحاولت أن أتخيله فلم أقدر ، وددت لو استفسر عن حبه الآن ، كيف يعبر عنه ، كيف يراها عند استيقاظها ؟ عند تحركها فى البيت ؟ كيف تمضى أدق لحظاتها الخصوصية ؟ لماذا تبدو حزينة ؟ ألهذا الحزن علاقة ، أم أنه لأمر مختلف ؟ بعد أن فرغت سألتها عن يومها ، قالت إنه موزع مابين المعهد والبيت . مابين دراسة المعمار وشئونها ، إنها تقوم بكل شىء ، أحيانا تمضى للسباحة ، للرياضة أو للمشى مسافات طويلة . سألتها عن أصحابها الأقربين ، فقالت إنها لاتثق بأحد !.

أخى الأعز..

هذا حوار جرى بيننا ، بينى وبينها لاغير ، فى المسافة الواقعة بين باب المطعم ، والمدخل الرئيسى للفندق . حوار له منزلة عندى ومودة . حتى وددت لو دونت ما احاط به ، تاريخ هذه البقعة من الأرض التى مشينا فوقها ، من لامس موقع خطانا منذ أن جاء إليها بشر وسعى إنس ، وددت لو وصفت ما أحاطنا ، وذكرت كل من تواجد على مقربة ، وحال الطقس ، وموقع اللحظات من دوران الفلك . أليس حوارنا الأول على انفراد ، أليس الحوار الذى آنست فيه ثقة بى ، وخصوصية ، فما صرحت به لنا لم تقله للهندى وزملائه مع أنها مكلفة بمرافقتهم ، وشرح مايرونه ، وتيسير السبل لهم ، لكنها شاءت لعلاقتها بهم ألا تتجاوز الإطار ، كما أنها موهت ، فلم تفصح شيئًا عن حياتها ، أما النبرة التى صرخت بها أنها لا تثق

أنها لا تثق بأحد ، فبقدر ماتضمنته من شكوى ، بقدر ما احتوت من أسى وبوح إلىَّ أنا ، كنت متأهبا لالتقاط أية إشارة . تلون صوت ، أو ارتعاشة واهنة فى مخارج الحروف ، أو تسهيم نظرة ، غير أن سنييّ علمتنى الحذر . ألا أبالغ ، فلكم أسىء فهمى ، ولكن أبديت وصورت ، وأفصحت وأحبطت . وأنت عالم ببعض مامر بى .

عندما اجتزت المدخل ، بدت برودة الجو محتملة . إلا أننى احتفظت بغطاء رأسى ، الأشجار حول الفندق . وأينما وليت البصر تقع عيناك على مبانى العصور القديمة . الخزف الأزرق غالب ، فكأن مواد البناء والزخارف . والخط النستعليق والثلث وتلك الحروف المتداخلة المتصلة وثيقة القربى بأسباب خفية . تمتح من زرقة السماء وتنهل ، وإذا كانت بخارى كالمخطوط العتيق الذى تطوى أوراقه معانى أكثر مما تظهر ، تكظم وتدثر ، فالحضور السمرقندى مبسوط للكافة ، للقاصى ، للدانى ، كنا ، أنا وهى نقف فى الباحة منتظرين رفاق الرحلة ، هى على مقربة بجوارى ، لبشرتها مذاق القشدة التى تغطى اللبن فى وعاء فخارى ، تدس يديها فى جيبى معطفها ، أما الصباح فوقته من هذه الأوقات التى تمد فى الأجل . وتقصى الهواجس المكدرة للأفئدة ، وتعد بالوصول والبشر ، كنا فى انتظار العربة التى ستقلنا إلى مدرسة بيبى غانم . زوجة تيمور ، إلى مجموعة شاه زند ، الأمير الحى ، بين كتبى مجلد يسجلها من كافة زواياها . كان عندى انفعالى الخاص ، لقرب

رؤيتى ووقفتى على ماطالعته صورا وسطورا ، تحين لحظة أقف فيها لأقرأ فاتحة الكتاب على شاه زند . قثم بن العباس . ابن عم الرسول الكريم ، تقول مخطوطات التاريخ أنه استشهد هنا فى العام السابع والخمسين لهجرة حبيبنا وشفيعنا ، لكنهم يوقنون هنا أنه بعد سقوطه شهيدا . حمل رأسه بين يديه ، وآوى إلى بئر عميقة ، وفى قاع البئر تبدأ طرق شتى إلى حدائق لايحيط بها بصر ، ولايدركها رحيل وإن طال . وأنه مازال حيا يرزق فى إحداها ! .

كان قصدنا مدرسة أولوج بك . ومزارات شتى ، كنا نتأهب للتوجه إليها مع أنها تلوح من هنا . يجىء العصر العتيق إليك ، يلحقك أينما كنت فى سمرقند ، ولايدعك تمضى إليه . يؤطرك يتبعك ، يتقدمك ، ويسلك الطريق إلى شعاب الذاكرة والتلافيف التى لا تبين ، أما حضورها الكثيف فأضفى معنى فريدا على هذا كله ، كان ما أراه من معمار وتكوين فى الفائت ، أما هى فإنها الآتى عينه ، فى الضوء السمرقندى رأيت لوناً جديدا لخصلات شعرها ، فإن قلت أنه أسود صدقت ، وإن وصفته بالنحاسى أصبت ، وإن لمحت فيه شقرة فما كذبت ، ينهل من الصفات ، وألوان الطيف . وسر الشفق ، قلت فتوددت ..

شعرك جميل

واجهتنى بجانب وجهها الأيمن

كان أطول

ثم قالت فى نبرة أنثوية :

هل يعجبك هكذا ؟

تسألنى أنا ؟ هى توجه إلىَّ يا أخى استفسارا عن رأيى ؟ لا ... مهلا ، ليس بهذهِ العجلة . أوشك بهت أن يطوينى ، لكننى أفلت منه بقولى :

إنه رائع .

بدا منى تحنن ، فى العربة نأت عنى ، حرصت على الجلوس فى الصفوف الخلفية حتى انهل منها . حتى لاتغرب عنى ، عرفت من صاحبى أننا قبل بدء الجولة سنتجه إلى اجتماع ، حيث تلقى كلمات ترحيب ومودة ، اخترقنا شارع مكسيم جوركى ، على جانبيه يتداخل القديم بالحديث ، تتماس الأزمنة . وتتوالج أحيانا . بعض الأزياء الأوزبكية منحدرة من عصور تعرف يا أخى مدى حنينى إليها وتفكرى بها ، توقفنا أمام مبنى شيد فى الأربعينيات ، سارعت بمفارقة مقعدى حتى اقترب منها ، جاورتها ، التفتت إلىَّ ، كأنها تحدث نفسها قالت :

لا أحب هذه الاجتماعات ..

حرت . هل يجوز لى الرد ؟ هل أرجوها البقاء ، أو أعرض صحبتى ، وددت لو طلبت منها . ألا تغيب عنى ، لكن ألجم لسانى تطلعت إلىَّ ، كررت .. أضيق بالخطب .

ثم قالت :

لن أذهب .

أطرقت مفكرا فى مردود اختفائى من الاجتماع ، وصحة هذا

من عدمه ، وعندما تطلعت صوبها لم ألقها ، لا أدرى كيف اختفت ، عند دخولى القاعة لمحت الهندى وصحبه ، لم تكن معهم . أصغيت شاردا إلى التصفيق ، إلى الترجمة الفورية ، إلى ملامح الحضور ، إلى الدقائق المتعاقبة ، يهتصرنى سؤال ، أين هى الآن ؟ لماذا نفرت هكذا ؟ لماذا أسفرت عن هذا الجموح ؟ هل بدر منى شيء ؟ لماذا أحمل نفسى الوزر ؟ لكنه دأبى يا أخى . عندما تركت العربة مبتعدة سرى عندى خواء . أين هى ؟ هل تمضى عبر آثار المدينة منفردة ؟ أم أنها بصحبة من أجهله ، وما نفورها إلا حجة لانصرافها ليتنى تخليت عن الخطة ، ليتنى تبعتها ، ليتنى لم أتوقف لأحتسب الأفعال وردودها . ليتنى مشيت فى أثرها ، لا أقترب إلا بالقدر الذى تشاءه لو أنها راغبة فى الانفراد ، لا أتكلم إلا إذا سألت : ولا أجاورها إلا إذا أشارت ، أما أن تختفى هكذا ، أن يمضى وقت لا أراها فيه . أن تنأى عن دائرة بصرى ، المجال ضيق . اغتممت ، عزيت نفسى أنها تتحرك فى سمرقند . ترى القباب ذاتها . وتقف أمام واجهات المدارس عينها . لكم رغبت أن أراها بصحبتها . أن أفسر لها كيفية التلقى عندى ، أن أحدثها عن فرادة الخط العربى المحيط بالأفاريز ، النقوش الحافة ، والحروف المتداخلة ، جمال حرف الألف الذى بلغ طوله مترين كاملين عند قاعدة قبة بيبى غانم أقرا لها الآيات القرآنية . وأفسر قدر اجتهادى ماغمض من معانيها فجأة .. تباغتنى هواجس مرة .

أحقا هى بمفردها الآن ؟

إذا كانت فى صحبة ، فمن ؟

أهو أحد هؤلاء الأجانب ؟ إنهم أقرب إليها ، والطرق التى تبدأ من عندهم تجاهها أقصر وأوجز ، فالميراث دان . والمزاج متشابه . أما أنا فقادم من جهات قصية ، وماهى إلا طرح مغاير لما عرفته ، فلماذا أطرق دربا وعرا ، ولماذا ألقى بنفسى فى هجير صعب ؟.

لكن .. قبل هذا كله ، لماذا انحى بالعتب . باللوم ، وكأن المواثيق قائمة . والعهود أخذت بيننا ؟ وكأن الود متبادل . وهنا تذكرت واحدا ممن أجلهم ، واقتدى بهم ، وأحفظ لهم المكانة ، أحب فى أول شبابه بنية أوحت إليه بما أوحت . هام بها حتى كاد يهلك . أفنى من ذاته ما أفنى ، وأبدى من فيضه ما أبدى ، غير أنها لم تعبأ ، ومضت مقترنة بآخر ، وانقطع بها العهد . أصغيت إلى محدثى ، كان يستعيد أمرا مضى عليه أربعون عاما وازدادوا سبعا ، ولكن فى صوته أسينة لا تخفى . لمت البنية ، واتكأت على سيرتها بالكلام الشديد ، إلا أنه ضحك ضحكة صافية لها جلجلة..قال :

وما ذنبها هى ؟ أنا أحببتها ، ولم تحبنى .. ماذنبها ؟.

استعدت هذا وكدت أضحك ساخرا فى نفسى . لكنى لم أقدر فالأمر جد . لكننى تساءلت ، لماذا أسىء الظن بها ، ربما رغبت حقا فى الانفراد ، ألم تكن صباح اليوم ساهمة ، كدت أستفسر من الهندى إلا أننى أحجمت ، مضينا عبر طرق تستقيم وتنحنى ، صعدنا تلالا ممهدة ، ورأيت سمرقند منبسطة ، قبابا تجاور قباب ، ومآذن تشير إلى جوهر السماء ، منها المكتمل ، والمقطوش ، أما

المداخل الشاهقة فتحاكي ديوان كسرى ، لو أنها بصحبتي لقلت لها ذلك ، لاحظت قلة نشاطي وهبوطي ، حتى صرت قاب قوسين أو أدنى من وجومي ، فما أسرع الومضة ، وما أقل عمر الشهب ، لذت من ضيق بسمرقند ، أوغلت فى المنمنمات ، فى نقوش الجدران ، فى حركة البشر الذين لم تتبدل أزياؤهم منذ قدم سحيق ، فى السوق الكبير ، ورأيت فى قطع الجبن فرادة . وفى الخبز الذى فضلته عما عداه خارج دياري ، وعندما وصلنا إلى المرتفع ، حيث مرصد أولوج بك . انقلبت السماء رمادية ، وهبت رياح باردة ، وتوارى إدراكى للبهجة الذى عرفته عند صحوى ، بدأ النفق المؤدى إلى مكان المنظار غريب التكوين ، كأنه يفضى إلى فراغ داخل جوف الأرض ، طفت بالقبة ، والمعرض الحديث المقام بها ، وتأملت صور أبى بكر الخوارزمى ، والشيخ الرئيس ابن سينا ، والبيرونى ، مانسبة الخيال إلى الحقيقة ؟ إلى أى أصول استند الرسام المجهول لى ؟ رأيت رسوم عالم الفلك ، والطبيب ، والمنجم ، ولم أر توقيعا حتى لمن شادوا هذه العمائر التى تجاوزت هشاشة البقاء ، حتى مدرسة السلطان حسن ، ظل اسم من صممها ونفذها مجهولا حتى سنوات قريبة ، عندما وجدوا ذكره متواريا فى الأعالى القصوى ، لماذا يتوارى المعماريون ، لماذا تبقى أسماء البنائين مجهولة ؟ يحمل الهرم اسم خوفو ، تحمل المدرسة الشاهقة اسم زوجة تيمور ؟ لكن أنى لنا معرفة من انهار عليهم الردم فجأة ، أو من تعلقوا على ارتفاعات شاهقة لتثبيت لون ، أو خط حرف ؟

هيروغليفيا كان يا أخي أو عربيا ، لكم وددت ياصاحبي أن اسمعها انطباعاتي ، أن ألفظ قربها مايجول بخاطرى ، أن أقف إلى جوارها لحظة تجول نظرى عبر الأرض الممتدة ، المتموجة ، متسائلا عن البقعة المجهولة التي يرقد فيها الشيخ الرئيسي ؟ أين مثواه : كيف تاهت عنه الذاكرة التي احتفظت بهذه العمائر، مابقي منها وماانذثر أين عاش هنا ؟ أين أبدى المجاهدة . أين حصل العلم ؟ لو ألم بحالى وماصرت إليه فى دياره بعدما عرفته من جذوة العشق لنظم رسالة مطولة فى نأى الحبيب عن مجال البصر. أو لخصص فصلا عن التلاقى التفرق فى « الشفاء » والمنطق ! أين سعى ؟ أين ولى وجهه فى أى موضع كانت داره التى كابد فيها السهر ؟ ، أما البيرونى فكدت مع استغراقى أن استدل على الجهة التى سلكها عندما قصد الهند . تمنيت لو أنها بصحبتى يا أخى لأطلعها على معرفتى بهؤلاء لو أنها قربى وأنا أحدق فى ملامح الساعين حولى ، ربما انحدر هذا من أحدهم ، لاهو يدرى ، ولا غيره ، أيتعقب الإنسان جذوره البعيدة ؟ إذن أين كان جدى منذ ألف حول ، وأين كان جدها فى ذات الحقبة ؟ حاولت أن أوغل فى النقوش ، أن ألوذ بالتصاميم بالخطوط المتداخلة ، كنت أبتعث لحظات نائية ، وأقابل كل منها بظل مما أرى ، أو مئذنة ، أو مدخل مؤد مما أجوز ، حاولت رؤية ما لا يمكن رؤيته تخفيفا لما أحدثه عندى ابتعادها المفاجئ. وفى إحدى الزوايا الظليلة انتحيت ركنا قصيا ، وبصوت مهموس ، مسموع عاتبتها .

فاليريا .. أين أنت ؟

وعندما اقترب منظم الجولة منى ، من صاحبى ، واقترح علينا تدبير عربة تمضى بنا إلى ضاحية خرتنك ، حيث ضريح الإمام البخارى . أبدى صاحبى حرارة وحسن استقبال للاقتراح ، وطلب مجيء المعمارى الجزائرى معنا ، أمر يسره ، صرنا أربعة . جاء معنا دليل أوزبكى ، ترجلنا ، جزنا السور الخارجى ، والممر المرصع بالفسيفساء الملونة وأشجار الحديقة . والباب المؤدى مباشرة . حتى إذا وقفت أمام الشاهد الرخامى ، وبسطت الراحتين . قرأت الفاتحة ، ثم قرأت مادون من تاريخ ميلاد ، واخبار رحيل صوب الآفاق النائية لتحصيل العلم ، تمتمت أحمل للراقد الجليل تحية كل حبيب وقريب لم يمكنه المجيء إلى تلك الأصقاع ، ومنهم بالطبع أنت يا أخى الأعز ، فارقت الضريح والمسجد المجاور متهدهدا ، فهذا موضع لن أجيء إليه مرة أخرى ، وهذا كريم جليل لن أقف بقربه ثانية . أما رطوبة المسجد ، وظلاله ، ورائحة السجاد القديم والجير الذى طليت به الجدران ، فقد بلل هذا جفاف روحى ، وأثار عندى شجنا غامضا .

تعرف يا أخى حديثى عن لحظات دقاق لا تروح من الحضرة القلبية أو الذهنية ، لا يغيب عبيرها ، لن أنسى من هذه الطلة ، تلك الوقفة ، الزيارة ، أمورا عديدة ، فمن ذلك لونان ، وعبارة ، وحركة أما اللونان ، فاعلم أنهما الأبيض والأخضر ، بياض رخام الضريح والفراغ المصفى ، ونضرة الحديقة المحيطة ، ولون الخشب

المظلل لوحدة القبر ، أما العبارة فمنقوشة على الشاهد ، أذكر لك نصها :

« .. وجاب البلاد ، ونزل الأمصار ، حتى بلغ شيوخه ألفا وزيادة .. » .

وقد لاقت عند زميلنا المعمارى الجزائرى نفس القبول وجميل التلقى ، حتى طلبت منه ترديدها بصوت عال ، كما شاء أن أقرأها له ، والجزائرى هذا صاحب غربة ورفيق سفر ، إلا أن ماقربنى منه هواه الزائد بالمعمار القديم . وعشقه لفاس ، وتلمسان ، وقسنطينة ، ورغبته فى زيارة القاهرة العتيقة ، قلت له إنه إذا جاء يوما فسأكون دليله . وقال لى إذا جئت الجزائر فسيكون عينى الفاحصتين . وكان مابدا منه ، وما ظهر منى لب المودة .

أما الحركة التى لن تروح من عندى أبدا . فمجىء شيخ أوزبكى ، جبته خضراء . وحزام خصره حريرى عريض . منقوش ، وعمامته بيضاء ، أما لحيته فكثة ، جثا على مقربة . ولامس ركبتيه بيديه ، ثم بدأ تلاوة آيات بينات من سورة يس ، وتلك سورة مباركة اعتدت ترديدها عند مثوى أمى وأبى ، رحمهما الله رحمة واسعة ! فارقت ضريح الإمام ، وكان الطريق الخارجى مزدحما ، وقوم قادمين ، ساعين للزيارة ، ونهر زارافشان متدفقا بمياهه . ومزارع قطن شاسعة ، أما داخلى فزاخر بفيض ، وتوق ، وشدة فقد ، لو أنها بالصحبة ! .

علت النفس يا أخى برؤيتها فى المزرعة الجماعية ، إذ تجددت

المصدر ، وسلام مبين ، أما السماء فلاحت أبدية ، منبسطة ، فيها أصداء القباب السمرقندية الزرقاء ، كذا شهوق المداخل المؤدية ، ونمنمات الضوء المنبعثة من عينيها . ورواء بشرتها . وشموخ نظرتها الجانبية ، كنت متحسرا على كل لحظة تمضى وهى بعيدة عن النظر ، على وشك أن أضع يدى على سريان عبيرها خلال زهر الليمون ، وظلال الأشجار ، وترقرق أجنحة الفراشات المحومة ، جلنا عبر المزروعات المغطاة ، وقفت عند قنوات المياه ، ولأمر خفى ، حننت إلى الإسكندرية ، ورسوخ قلعة قايتباى ، ومداميكها الحجرية المواجهة لصخب الموج وعنف هبوب الرياح وفوق الأبراج حراس أشداء ، وأصداء صيحات متجاوبة ، ورجال منقطعون عن الأهل والولد ، مرابطون تحسبا لهجمة مفاجئة تجيء عبر الفضاء البحرى الذى يفغر فاه ، فكرت فى مدينة سلا ، هناك أقصى الغرب ، وشاطئ المحيط ، وحصن قديم انقطع فيه مجاهدون أوائل ، وشرفة حجرية كل ماتبقى من حصن زال معظمه عند شاطئ تونس ، وردت علىّ أعمدة مرمرية غارقة تحت سطح بحر ناء ، ومنحنى فى سمرقند وقعدة لرجلين يرقبان مغيب الشمس إيذانا بتناول افطارهما الرمضانى . فى فؤادى تتشعب طرق ، ومن غياهب ذاكرتى تفد قوافل الصور . كذا حننت إلى نغم متمهل ، يسرى باعثا أحزانى جلت مع الصحب . وتذوقنا شرائح الليمون المرشوشة بذرات السكر وقطوف العنب ، متجعد الحبات بعد تمام النضج ،

والتفاتتي فيها طموح لتجاوز الأطر المكانية ، وعندما لاح رفاق الرحلة من بعيد ركض بعضى فى أثر بعض ، غير أننى حدت ببصرى ، إما لأننى رغبت فى تأجيل رؤيتها شأن من يؤجل المتعة ، وإما خشية ألا تكون بصحبتهم فأوثر البقاء فى مجال التوقع زمنا ، مرجئا القطع . وبتر اليقين ، غير أن خواء سرى عندى ، لو أنها بينهم لتوالت داخلى إشارات حتى وإن لم ألمحها ، وعندما دنوا وصافحوا ، كتمت استفسارى ، تصدع وقتى ، وحجبت عنى موجودات شتى من مجال الرؤية ، آثرت الانفراد ، حتى إذا انتهت الزيارة وليت وجهى شطر الطريق وغبت فى الظنون . عند المنحنى المؤدى إلى مدرسة بيبى غانم ، فوجئت بصاحبي يقف ، يدق زجاج النافذة ..

«فاليريا .. فاليريا ..» .

يلتفت إلىَّ ، وكأنه يعى قضيتى . يشير إلى الطريق ..

« هاهى ..» .

أتابع إشارته ، يتدفق القوم أمام الواجهة الشاهقة ، على مرأى من النصب الفسيفسائى للزمن ، أين هى ؟ أين ؟ تمضى السيارة ، لم أرها ، مطامح شتى ، وأودية عتيقة ، معاطف ، أغطية رأس ، طفل يحمل زهورًا ، فتارين صغيرة .الطريق منحدر ، آثار المدينة تحدد مسارات الطرق ، الأشجار باسقة ، لكن ما من توليب ، لا يبدو إلا معها ، ولا يلوح إلا بقربها ، يلتفت صاحبي إلىَّ .قال مؤكدًا ..

«كانت تمشى هنا .. »

تساءلت ..

« بمفردها ؟»

مط شفتيه .

«لا أدرى .. لمحتها هى ..»

هل رآها بصحبة أحدهم ويخفى عنى؟ من أين قدمت ، وإلى أين ؟ وكيف أمضت الساعات الماضية ؟ توقفت العربة أمام مدخل السوق ، باعة الجبن الحلوم . والسجق ، والخبز الأوزبكى ، منتفخ الحواف ، أخمص الوسط ، ناصع الباطن ، قيل لنا إن الوقت المتاح نصف ساعة ، أبطأت الخطى ، مضى صاحبى مع الجزائرى ، آثرت البقاء والمشى بمفردى ، سأقطع الشارع حتى نهايته ، ثم أعبر لأعود من الرصيف المقابل ، لو أنى أراها فجأة ، سأتوقف أمامها . أبثها شكوى فقدى لها ، وأرجوها ألا تغيب مرة أخرى . فالمتاح من الزمن غير مساعد . توزع بصرى مابين الواجهات والمارة ، مررت على ثياب مزركشة ، واشتريت عطرا محليا ذا فرادة . وقلبت أغطية رأس ملونة مرصعة ، منمنمة ، وحافظات جلدية عليها صور محاربين قدامى ، وحيوانات ، وطيور كواسر ، رأيت امرأة جميلة . متصلة الحاجبين ، تماست نظراتها بنظراتى ، ومضت ومضيت ، استنفدت الوقت المحدد ، أسرعت الخطى ، محرك العربة دائر ، حتى فى المطعم لم أرها ، ولما سألت ناتاشا الهادئة قالت إنها لم ترها ، وأنها لم تصحبهم إلى الجامعة صباح

اليوم . قالت إنها تفضل الانزواء والوحدة ، وإنها مضت تجول بمفردها فى المدينة ، قلت : لكننا سنرحل بعد ساعة إلى طشقند . قالت : لابد أنها تحسب وقتها . قلت : أتعرف هى ميعاد الرحيل ؟ قالت : طبعا ..

ابتسمت ناتاشا . لاح فى عينيها معنى ، قالت :

«كانت فاليريا روح السهرة أول أمس ..» .

طالعتها بعينين أسيانتين ، تابعت هى ..

« أنها تفيض حيوية » .

أومأت مؤكدا ماقالته ، غير غافل عن إشارات أبدتها بملامحها . اعلم يا أخى أن العصر والبرد القارس وأصداء المدينة الغامضة علىَّ ، ناءت ولفتنى بوحدة ، أما افتقادها يوما بأكمله فضاعف الخواء والوحشة ، صرت أتعجل الرحيل ، الوصول إلى المطار، هناك سأراها بالقطع ، غيرأن الأمر لم يأت بما توقعته ياأخى الكريم . فعندما دنا الوقت ، وتحركت السيارة صوب المطار ، كانت غيبتها مستمرة ، أيعنى ذلك تخلفها هنا ؟ أضلت طريقها أو أصابها مكروه ، أو التقت بنفر من قومها . شغلوها ورتبوا لها ترتيبا مغايرا . رحت اخاطبها على البعد : لم يصلك ماعندى ولم تلمحى مايمر بى لم تدركى ، ولو أنت اطلعت على قبس لما ضيعت يوما كاملا لم أرك ، لم أحدق فيه . أوليت ظهرى لسمرقند ، عاصمة تيمور ، لأرض استعرض فوقها جيوشه قبل خروجه إلى العالم غازيا ، مرة إلى الشام ، ومرة إلى الهند ، وآخر الخرجات إلى

الصين . أوليت ظهرى لطوابير الغنائم ، للسبايا الجميلات . لأولوج بك الفلكى . للخوارزمى ، لمثوى ابن سينا المجهول ، لليال متوالية تطلعت فيها عيون متفحصة للسموات العلا ، لقرية مندثرة فى وادى بعيد هنا آوى إليها يوما بنّاء أجهله ، أو رسام لا أعرفه ، أو قاصد سبيل متغرب عن موطنه ، كان الغروب يدنو ، والمطار ممتدا ، فيه شيء من لانهائية الصحراء ، وأبدية الوقت ، ومما تعجبت له عند مطالعتى تصميم المدينة ، أن هذا المطار أقيم فى نفس موضع الباب الشمالى الذى كان يخرج منه القاصدون بخارى ، فهذا موضع مفارقة ، ومكان رحيل دائم ، اعلم ياصاحبى أن سمرقند البالية كان لها أربعة أبواب ، كل منها يقابل جهة أصلية ، فالشرقى يؤدى إلى الصين البعيدة ، والغربى سمى بباب النوبهار ولم أعرف معنى ذلك ، أما باب كش ، أو الباب الكبير ، فكان يؤدى إلى موطن تيمور الأصلى إلى مسقط رأسه ، وهذا مكان الرابع حيث وقفت قلقا . أسفا . أرقب طلتها أو قدومها ، سألت صاحبى عما يظنه سببا لغيابها . أبدى دهشة ، قال إنها محيرة ، صمت لحظات ثم قال ، إنها تحب الاهتمام بها ، أن تكون محورا ، ومركزا ، وقبلة للأنظار ، ولابد أنها ستظهر فى اللحظة الأخيرة بعد أن يكون الجميع شغلوا بها .

هذا التفسير يا أخى لم يرضنى ، لم يعجبنى ، إنها محور بدون أن تقصد ، وبؤرة بغير تعمد ، لمحت الهندى وصحبه ، سارعت ، استفسرت منه ضاحكا ـ كأنى لا أبالى ، كأن سؤالى عرضى ـ عن

مرافقتهم الجميلة ، فقال إنه لم يرها منذ صباح اليوم . ابتعدت رحت وجئت ، عدت أقول لصاحبي إن ما أقدمت عليه يعد استهتارا ، هل لديها تكاليف العودة إلى موسكو البعيدة ؟ كرر صاحبي ، إنها محيرة ، انصرفت عنه ، قلت لناتاشا ، يبدو أن سمرقند أعجبت فاليريا . مطت شفتيها ، سألتها ، ألم تكن بصحبتها فى الحجرة ؟ ألم ترها عندما حزمت حقيبتها ؟ قالت إنها لم تكن فى الغرفة . أما حاجاتها فكانت مبعثرة ، جاء صاحبي ، افضى إليَّ بنبأ . أرسلوا عربة للبحث عنها ..

قلت :

« لا أدرى كيف ستقضى الأيام هنا بمفردها ؟» .

ردد ..

« إنها غريبة » .

ثم ابتسم ، ثم قال ..

« تبدو مهموما لغيابها .»

جاوبته باختصار .

« إن الأمر جد ! ».

مع اكتمال المغيب . أذاب الغسق ورمادية الشتاء والرياح الباردة حدود المطار المادية ، فبدأ متصلا بالغيب ، بالمجهول ، وفى الأعالى تتغير السماء السمرقندية بسرعة فى مواجهة الليل المقبل ، اعلم يا أخى أننى عندما أفارق أرضا رأيتها أول مرة أتساءل . هل سأراها مرة أخرى ؟. تذكر يا أخى رحيلنا عن فاس ، عندما ضمتنا

صحبة معا ، أتذكر كيف كنت أفارق الطرقات والزنقات والساحات الصغيرة وقنوات المياه الجارية ، كذا واجهات البيوت ، كنت أتراجع بظهرى ، حتى كدت أصطدم غير مرة بالعابرين ، لم أكن أريد مفارقة الزوايا ، والعطوف ، والنواصى التى أحببت ، هذا حالى أيضا فى لحظاتى السمرقندية الأخيرة ، وإن مازج أمرى هنا انشغالى بتلك البنية ، أضاف ذلك وجدا على وجدى ، كانت الثوانى تنسل ، والقوم وقوف ، لايبدو عليهم اهتمام بغيابها ، أنه انتظارهم ، عادى ، لا ترقب فيه ولا قلق ، عدا رجل رافقنا من طشقند . كان مسئولا عن الرحلة ، بدا مشغولا لغيابها ولكن من وجهة غير وجهتى ، ومن منظور يخالف منظورى ، فجأة سرت حركة بين الجمع ، امسك كل منهم حقيبة اليد . أو ماسيصحبه إلى الطائرة ، لم أدر من أشار ببدء الحركة ، غير أن جنديا أسرع الخطى ، وفتح البوابة الحديدية الصغيرة التى تتخلل السور ، بسط ذراعه فوقها ، كأنه يشير إلينا : تقدموا . كان علينا ان نعبر واحدا بعد الآخر ، بدأ اتجاهنا عبر المطار يتخذ هيئة طابور غير منتظم ، ابطأت الخطى ، بل توقفت لحظات حتى أن صاحبى تطلع إلى مستفسرا ، مازحا قال .

« هل قررت البقاء هنا ؟» .

لو أنك مكانه يا أخى ، لو بصحبتى ، لسألتنى بنفس اللهجة ، فالمكث بمفردى يبدو مستحيلا ، فى رحلة جرى ترتيب مراحلها وفقا لنظام محكم ، أما المسافة بين سمرقند وعاصمة البلاد فشاسعة غير

أنك يا أخى تعرفنى أكثر ، إذ بدأ الخاطر عندى ، وتصاعد . أن أبقى حتى ألقاها ، ألا أرحل بدونها ، ولم يبق إلا انسحابى خفية ، أو إعلانهم بقرارى ، كيف أمضى وهى ليست فى مجال البصر ، أرقبها ، واتملاها ، وأتمناها ، سأرجع إلى المدينة ، إلى الفندق ، وعندما ألتقى بها ، ستبدو الدهشة فى ذرات ضوئها ، عندئذ لا أدرى ، هل سأبقى صامتا لثوان ، أم أشرح لها مافعلت ؟ هل سيصلها جواى واتقادى لحظتها ؟ عندئذ أقول لها إن تخلفى سيثير اهتمامهم ، فأنا غريب ، محدود المدة ، وسيبدون لى من تسهيلات العودة مالن تلقاه هى ، لذا آثرت التخلف والبحث عنها خشية أن تصعب عودتها ..

لكن !

تعرف يا أخى أنه عند ورود كلمة لكن على الخاطر تبطئ مسارات الأمور ، تتمهل النوايا ، ويلوح مفترق . ماذا سيقولون ، وكيف يفسرون بقائى من أجلها : أنا من لم أجهر بعد بالقول أمامها ولم أصرح . كيف أخاطر بالبقاء فى مدينة أجهل لغة أهلها ، الأمر أصعب وأعقد ، هكذا رحت وجئت ، درت علىّ وترددت داخلى ، أقلعت صوب جهاتى ، فما يكاد شطر منى يولى القصد تجاهى ، حتى يرتد شطر ثان مبتعدا عنى ، وما أن أوشك على الرسو عند ساحل ذاتى حتى يهتز قاربى . يختل . فأنأى وأقترب . أميل وأعتدل ، لم أحسم ، وهكذا مضيت مساقا صوب الطائرة . آخر القاصدين ، وأتعس الراحلين ، متثاقل ، كاره مسارى ، إذن

سنقضى ليلتنا المقبلة فى طشقند بدونها ، لن تصحبنا إلى العاصمة فكأن السعى فى مفازة شجواء إلى نهاية الاستيحاش ، قبل أن ألج جوف الطائرة تلفت ، هناك عند البوابة يقف جنديان ، عند مدخل البوابة يتطلعان صوب نقطة ما . تواريت فى المقعد الضيق غير عابئ بتطلع إحداهن إلىَّ مبتسمة وكأنها تدرك مابى ساخرة ، لم أقعد بجوار أحد . وضعت حقيبتى الصغيرة بجوارى ، من يدرى ، ربما جاءت فى اللحظة الأخيرة ، عند دخولها ترى المقعد الشاغر فأجاورها مدة ساعتين . تطلعت عبر النافذة الرمادية ، غبش رمادى متزايد . أصداء المدينة التى لاتلوح لناظرى ، القريبة ، البعيدة الآن .

لكن .. ماذا ؟

هل تخف لهفة المشتاق ؟ هل ينزاح الثقل ؟ لقيت نفسى يا أخى يردد بصوت هامس ، عاتب ، متدفق النظر إليها حيث لاحت ، وبانت ..

لماذا فاليريا ؟ لماذا ، لماذا .

أعاتبها ، أهدهدها ، ضاما إلىَّ مايشع منها لهفة وخوفا إثر العثور عليها فى اللحظات الأولى ، رءوم . حان ، متهدج ، غير مصدق ، فأحدق أطول ، ثم أقربها ، مستعيضا عن النظر بالتقريب ، بالضم ، بينما عتابى المنطوق لم ينقطع . تعرف ياصاحبى أن الإنسان إذا انفرد بنفسه يرتفع صوته أحياناً . أما مغنياً أو محدثاً ، ربما بدافع خفى ، قديم من الأزمنة المندثرة . إذ يلقى نفسه وحيدا فى

غابة ، أو قفر ، محدقة به أخطار شتى ، وافظعها المجهول منها ، عندئذ يصرخ ليؤنس فردانيته ، ولحظة انبثاق رؤيتها كنت الأشد وحدة ، ظهر تكوينها فآنست منه أمنا ، أبرزت ورقة للجنديين . صاح شخص كان يقف تحت الطائرة . تجتاز المسافة ، لا تعدو إنما تتدفق ، مويجات ، زخات قطر ، رشقات مصوبة تجاهى ، أما دخولها فاندفاعة وتفجر نبع ، خطوتها الواحدة نقلتها إلى الأمام ، تجاوزتنى لم تر المقعد الشاغر بجوارى ، صاح الجمع كلهم وناداها بعضهم باسمها ، واستفسر آخرون عن غيابها ، وأبدى البعض اهتماما مفاجئا . عداى ! لزمت السكينة ، وقفت تخلع معطفها ، تروض نفار شعرها ، ولم تكن إلا مبتسمة ، ولم تكن إلا مشعة ، ممهورة بالضوء ، بالألوان ، جلست فغابت عن مجال عينى ، وليت وجهى شطر السور ، البوابة التى لم تعد موضع ترقبى الآن ، السيارة التى مضينا بها فى الصباح إلى ضريح الإمام البخارى ، ترى إلى أى مقعد جلست ، ليتها مست المكان الذى شغلته ، فنلتقى حيث لم نلتق ، قربت وجهى من زجاج النافذة ، أرقب جريان الأرض . لحظة انفصالنا عنها ، هذه سمرقند من عل ، لم أدر هذه البيوت ، وإلى أى مسجد تنتمى هذه القبة القائمة فوق التل البعيد ؟ بدأ سحاب ، تزايدت كثافته ، لم أعد ألمح شيئا . غربت سمرقند فى الليل والغيوم ، كنت راضيا ، مرضيا كأنى ارتحت من لهاث أعقب ركضا . لم أتطلع تجاهها ، لم أحد بنظرى ، فما أعجب وما أغرب !. إلا أننى عند وصولنا الفندق ، بعد اتجاهنا إلى الغرف ،

بعد نزولى إلى المطعم ، بعد دخولها ، قمت إليها ، دعوتها فلبت ، قلت لها إننا غدا سنكون فى موسكو ، ينفض الإطار ، وبعد أيام ثلاثة سأفارق إلى موطنى . ومن يدرى . قد لا أعود إلى هذه الديار مرة أخرى ، ما أريده دقائق كى أحدثها ، بمعزل ، بمنأى ، أننى أدعوها إلى غرفتى .

توقفت متهدجا ، إنها ساهمة ، مدت أصبعا ..

نتحدث !

بدا لى صوتها يحمل قليلا من الموافقة ، وكثيرا من النذر ..

قلت :

بالطبع ..

قالت :

ولماذا لا نتحدث فى غرفتى ؟

قلت :

فى أى مكان تشائين ..

ثم قلت :

قصدى الانفراد .

قالت :

إذن .. سأنتظرك بعد صعودى ..

هنا صارت دقات قلبى دوارج ، حتى أنهكت بما يجرى داخلى مع أنى وثاب ، فاغفر لى يا أخى الأعز إسرافى فى أمرى ..



تـــــــوق

.. اعلم يا أخى الحبيب ، الصاحب ، القريب ، إن أصعب اللحظات مايتم فيها التأهب ، حين يلملم المرء شتاته . يحاول أن يجىء من هنا وهناك بما يمكن أن يعينه ويقويه . الأشق انتظارالفعل ، وليس الفعل ذاته ، اعلم أن أوعر مامر بى فى مرات سجنى توقع الضرب والأذى ، وليس التعذيب عينه ، أثقل ماعرفته أثناء القتال مايسبق بدء الهجوم وليس الاشتباك . أصعب مراحل المرض الجهل به ، مامن مرة قاربت فيها من أحب إلا وانتابتنى رهبة . وأكثر مايكون المحبوب وجلا عند مضيه إلى لقاء ، إذ ربما يتم الفناء مع اللقاء ، فيذهل عما حوله ، هذا ماجربته ، فما البال إذا كان من خصالى أيضا عيش اللحظة إما قبل حلولها. وإما بعد انقضائها إما فى السابق وإما فى اللاحق ، لك إذن تخيل حالى . وما صرت إليه قبل المضى ، أحقا سأنفرد بها ؟ هل ألق نفسى فى القربى بهذه السرعة ؟ كيف سأبدأ ؟ بأى جمل افتتح حديثى ؟ ماذا أقول ؟ بل الأدهى ، ماذا أريد ؟ كوكبها أسرنى ، هذا حق .

أدور فى فلكها ؟

هذا حق .

هاهى الفرصة تتاح الآن لأفسر ، وربما أعقب ذلك أمر ، هل أرمى إلى إعلان حقيقة ولهى وجذبى ؟ نعم . لكن أيكفى هذا ؟

كلا ثم كلا !

إذن .. هل أبغى الفناء ؟ الاتحاد ؟ لا أدرى ، هل أعى ضيق المدة ، ألن أفارق هذه الديار كلها بعد ساعات معدودات ؟ فإلام أرمى ؟ أى وصل أبغى ؟ وصل عابر ؟ هذا لايطابق كنه حالى إذن .. مالى أتعلق بالصعب ؟ مالى أحاول فتح باب لن أقدر على رده ؟ مالى أوغل فى درب قد لا استدل على عودتى منه ؟ رحت أقلب أمرى ، حتى مرت بى لحظات ندمت فيها على سعيي ، مع تمام وعيي أن الأمر ليس بيدى منه شيء ، فإلى أية غاية ؟ تعرف ياصاحبى أننى عندما أكون فى جمع أحتمى بهم منى ، واتحصن منهم دفعا لى . وقديما قالت لى محبوبة همت بها قدرا ، أنت تتكلم حتى لا تتكلم . لحظتها فوجئت ، أدركت أنها كشفت بعض سرى ، وما أسطره لك يا أخى لم يطلع عليه أحد ، ولا أقرب الخلق منى ، فهل أنا بحاجة لتنبيهك إلى الكتمان والصون ؟ آمل أنك ملبٍ !.

لملمت شظاياى . تناولت لوحة صغيرة ، فيروزية اللون ، عليها نقش عتيق ، حملتها من أزقة قاهرتى العتيقة ، أبدعها عجوز تجاوز التسعين . آخر جيل المهرة فى النقش والترميم ، نوافذ الجص ، والأفاريز ، والعتبات المؤدية ، حملتها معى خلال اسفار عدة ، أقسمت ألا أقدمها إلا لمن أرى أنه يستحق ، لوحة بسيطة ، خلو

من أى صدف أو حجر ثمين ، لكن لنقشها رقة وترجيح وايحاء ، آن لها الانتقال عنى . تناولتها حذرا من حقيبة يدى التى لاتفارقنى ، جلت بنظرى فى الحجرة ، الحقيبة ، الكتب ، السرير الذى لم أرقد فوقه بعد ، رفعت سماعة الهاتف ، وعندما جاءنى صوتها بدأ نائيا محاطا بغلالة من ظلال ، استعدت مرأى شجرتى التوليب ، والغبشة الصباحية . رواحها ومجيئها ، منذ لحظة سريانى صوبها ..

تعال .. أنا فى انتظارك ..

اكتمل تأهبى ، بدأ شروعى ، كل ما أريده عند المثول أمامها ، عند الانفراد ، أن أوصل إليها بعضا مما عندى ، أما أن أرحل بهذا التفجر كله فإلى جانب أنه حمل ثقيل ، فلاشك أنك توافقنى على مافى الأمر من ظلم. أن أشعر تجاهها بهذا الدفق كله ، ثم امضى بدون أن تدرك فأمر فيه عبث بالناموس ، مررت أمام الأبواب ، تتوالى الأرقام ، وعندما وقفت أخيرا لم أطرق مباشرة ، إنما تطلعت ، قديما قيل إن مشاهدة المحبوب هى أعز مطلوب . وعندها يجب التزام آداب بعينها . منها الثبات وعدم الالتفات والخشوع والاقتناع والخضوع ، وتنسم رائحة المحبوب ، لكن من هو مثلى ، هل يثبت ؟ من قام بثيابه الحريق كيف يسكن ؟ النار التهاب وملكة ، فلابد من الحركة . من هدأ باللقاء قلقه فما هو بعاشق ، كيف يصح والعشق كله ظهور ، مددت يدى مرتين ولكننى انثنيت . ثم حزمت أمرى ، وعندما فتحت بدت كنصب أبدى للجمال ، للحقيقة الناصعة ، لم تكن مرتدية إلا قميصا أزرق يتيح

لعنقها الانسيابى الظهور ، ولصدرها البروز والمناداة . فى اللحظات الأولى أدركتها فى جملتها ، ولم يهدأ قلبى ، قعدت بعد أن أشارت إلىَّ ، لا أدرى والله يا أخى ماقلت ، ترتج ذاكرتى وتغيم علىَّ ، تعرف تبدد الكلمات الأولى ، حتى ماتفوه به إلى أقرب الخلق منا تصببه الذاكرة وتطمسه ، أعى الآن اللحظة التى بسطت فيها يدى . تطلعت إليها بكل ما امتد ورائى من أزمنة قدر لى أن أعيشها . وأمكنه ارتدتها أو أقمت بها ، وأشواق طافت ، وأمورى المبهمة ، عندما لمست أصابعى أصابعها ، عندما تلامس مشارف وجودنا الحسى ، قبضت يديها ، وعبرهما تدفق منى إليها حنو ورفق وطلب ومودة ورغبة فى القربى ، رفعت إليها ابتهال عينى ، لم أستتر ، لم أتوار ، لم أبذل الكد لأظهر ما ابطن ، كنت أتأهب للتأهب للاندلاع ، كنت أرتد بشرا سويا ، استعيد زمن زهوى ونضارتى ، والله يا أخى ، ياصاحب الأيام الصعبة ، لم أكن راغباً إلا فى الحومان عند أطرافها . والتحليق بأقصى أفقها ، أتطلع إلى مواردها لا غير مع علمى ويقينى أن فيها ريى ، غير أننى رصدت تبدلا فى ملامحها ، كأنها ستنبهنى إلى أمر ، بينما لاح عندها ماخيل إلى أنه ندم ، أو رغبة فى تدارك أمر فات أوانه ، ماذا فى الأمر ؟ ألم تقل أن زميلتها ستسهر حتى الفجر ، وربما قضت الليلة بغرفة أخرى ، ألم تؤكد أنها بمفردها ، لكن .. أتدرى ما أفضت به إلىَّ ، أتدرى ؟ قالت إن صاحبى سيجىء بعد دقائق ، أنها دعته .. لا . سأورد لك ماقالته بالضبط أثناء تراجع قامتها قليلا ..

لكن صاحبك قادم !

بدت لهجتها محيرة ، كأنى المسئول عن دعوته ، هل أدركت أخيرا ، فى هذه اللحظات . دقة وصفاء وعنفوان ماعندى ؟ كنت يا أخى أعول على ذكائها البادى ، على أمور خفية قربتها منى ، متمهلا سحبت أصابعى ، أطرقت حزينا ، خائبا ، راغبا فى النأى . فى التوارى ، فى التوحد ، فى الايغال مبتعداً ، على مهل تصاعد غضب ، أن تأبى هذا حقها ، أن ترفض الانفراد بى هذا مشروع . لكن أن تسخر . فهذا صعب علىَّ . وعز تحمله ، ليتنى لم أجاورها ، ليتنى بقيت فى مدارى ، لا أحاول الاقتراب ، لذت بى ، بصمتى ، تعرف يا أخى أننى لطول ما عانيت . لشدة ماقاسيت ، صرت أتقن اخفاء ماعندى ، لا أدع ملمحاً يتسرب إلى قسماتى ، لكم تمنيت بسط نفسى أمامها كل البسط ، أن أفض مغاليق شتى ، كان الأمر ثقيلا . ويبدو أنها لمحت بوجهى مانم عن طويتى ، ماجعلها تنظر إلىَّ هذا النظر الطويل . وتعاقبت علىَّ الأحوال ، فمن خيبة أمل ، إلى خجل غامض ، إلى رغبة فى الرثاء ، فى البكاء ، حدت بنظرى ، وليت عنها ، هذا مرفأ غير صالح لرسوى ، هذا محط غير آمن فلأتجنبة ، هذا سراب فلأنتبه . هذا ظل كاذب فلأحذر ، فلأمضى فى هجيرى المقدر ، شرعت فى التهيؤ للانصراف ، هنا طرق صاحبى الباب ، بدا غير مفاجأ بوجودى ، ما أصعب الوقت علىَّ وأنا أحاول اسدال الحجب حتى لايتسرب من أمرى خبر ، ترى .. هل أخبرته بجوارى معها ، برغبتى

فى الانفراد؟ ترى .. هل يضمر سخرية منى ؟ لم يغلب علىَّ خجلى ، بل ربما قصصت عليه ما جرى غدا أو بعد غد ، أما ونكسى مازال فى بدايته ، وأنا مازلت بعد أعبر تلك اللحظات الفاصلة بين وقوع الجرح وبدء دبيب الألم . فلم أكن قادرا على الجلوس ، أو المنادمة ، تحركت هى ، فتحت حقيبة زرقاء ، أخرجت حلوى سمرقندية . قالت إنها لم ترها إلا فى المدينة لم يكن هناك أطباق ، إلا أنها تناولت طبقين صغيرين ، يتوسط كل منهما كوب زجاجى ، وضعتهما فوق المنضدة . لم يفتنى أنها قربتها منى ، وأن حركتها فى مجملها متجهة نحوى ، فى غمار غمى لاحظت ذلك . كنت قد تراجعت عن الانصراف ، لا أخفيك يا أخى أننى لم أشأ تركهما معا ، بمفردهما ، ستقول إنها الغيرة ، أقول يا أخى لو أنك أنت ثالثنا لما تركتكما معا ، ستقول هذا عن شدة تعلق ، أقول وهل أعلنت صور تعلق أو هواى ؟. المهم يا أخى أننى اقترحت دعوة صاحبنا الجزائرى ، وأخرى كانت تظهر وداً لصاحبى ، بعد قليل جاء ، صرنا خمسة ، اصبحنا جمعا ، وهكذا احتميت بهم منهم ، أمكننى التوارى إلى حين ، أثناء الحديث التفتت إلىَّ مرات ، مرة سألتنى عن صمتى ، ومرة قطبت عينيها متسائلة ، ومرة ابتسمت بود وترحاب ، تحاشيت تسديد النظر إليها . أو الدخول معها مباشرة فى محاورة . حتى إذا ما انقضى وقت قدرت أنه مناسب وقفت معلنا تعبى ، ورغبتى فى المضى ، خاصة وأن سفر الغد طويل . غير أنها وقفت مقطبة الحاجبين ، مشدودة الجبين، طلبت

منى أن أبقى ، أبديت ابتسامة لا يحب رؤيتها من يعرفنى . سدت طريقى ، أشارت بيدها صوبى ، اكتست ملامحها جدية ، قالت بلهجة تحاكى فيها الخطاب الرسمى ..

« آمرك أن تبقى .. »

اتبعت ذلك بابتسامة . ولم يغب عنى المعنى البعيد فى إيقاع صوتها ، بحق مالى عليك آمرك أن تبقى ، كما انتبهت إلى دلالها . تطلعت إلى الصحب ، لبيت ، عدت إلى مكانى ، لم أدر كيف مضى الوقت ، ولكننى عاودت ابداء رغبتى فى الانصراف ، لم تثن عزمى فى هذه المرة نظراتها الملومة ، ولم يلح علىّ أحد ، بل إن الجزائرى قام واقفا ، قال إنه يود الذهاب أيضا ، عندئذ تأهب الجمع كله . كنت أول الخارجين ، وعند اجتيازى الباب أدرت بصرى ، لمحتها واقفة ، متطلعة نحوى ، وحيدة تماما ، عند المصعد مال علىّ صاحبى ..

« أقترح عليك العودة » .

بوغت . تطلعت إليه متسائلا ..

« عند وصولك غرفتك . اطلبها فى الهاتف ، و .. »

قلت باختصار

« لا أرغب »

« يا أخى ، ألم تحلظ فى عينيها اهتمامها بك ، نظراتها إليك .. »

نظرت إليه وكأنى بعيد ..

« أننى متعب .. »

بدا متعجبا ، مضيت إلى غرفتى ، مرتد النوايا ، خاسئ الخطى ، راغبا فى الانزواء . قعدت عند حافة الفراش منحنيا ، ممسكا اللوحة الجصية ، لم تتح لى فرصة حتى أقدمها ، لا أرغب شهر هداياى فى حضور الآخرين ، أزحت ثيابى . اطفأت المصباح الحاد نافذ الضوء ، رددت : آخر ليلة فى آسيا الوسطى . ثم فكرت : فى أى اتجاه أسير صوب مدينتى ؟ إلى دروبى التى أعرفها . فى اتجاه هذا الجدار أم ذاك ؟ لو مددت خطا مستقيما من نقطة رقادى هذه ، بدايته هنا ومنتهاه فى القاهرة ، كم يبلغ طوله ؟ هذه الأرض المقام فوقها الفندق ، من وطئها ؟ هل داستها خيول جنكيز خان ؟ جيوش تيمور ، أم كانت محطا لقوافل تجار الحرير . لماذا تبدو السماء هنا أرحب ، محسوس انبساطها حتى وان لم تقع عليها العينان ، أما فى بخارى فمحيطة بالمدينة . تلفها من كل جهة ، ولا تنبسط فوقها ، أما فى سمرقند فتتخللها الأعمدة والمداخل والقباب والنقوش والآيات البينات . استعدت انحدار طريق سمرقندى ، وشرفة مقهى بخارى ساعة الصباح ، وقبة توشك على الاتحاد بالفراغ الصاعد لزرقة ألوانها ، تقلبت مرة ذات اليمين ، ومرة إلى الشمال ، ثم قمت قاعداً فى فراشى ..

أنا فى الطابق السادس . هى فى العاشر . غرفتى أول الممر ، غرفتها آخر الممر من الجهة الأخرى ، عبثا حاولت طرحها ، اقصاءها عنى ، عبثا لجوئى إلى ماتصورت أنه تداعيات ماقبل النوم ، بدت خواطرى وبوادهى كلحظات سكون الماء قبل غليانه ، اهانتنى ،

سخرت منى ، كيف قبلت البقاء بعد ذلك ؟ تطلعت إلى الهاتف ، أيمكن أن أصغى إلى صوتها فى هذه اللحظات ، ألا تزال بمفردها أم عاد إليها أحدهم ؟ إنى مرهق ، متعب ، مكدود ، راحل غدا ، ولأنى منكسر ، معكوس الخاطر ياصاحبى فقد انتابنى رثاء لذاتى ، ورغبة فى نعى أحوالى . وفى مثل هذه اللحظات يتذكر الإنسان سعيه فى أوقات ضعفه . لم أكن تعبا بإرهاق يوم أو يومين، ليس بتأثير خيبة . لكن بما أحمله ، بتراثى كله ، أستعيد رقادى أثر مرضى منذ عامين ، تذكر عندما عدتنى مرارا ، أوقات الظهيرة بحرها القاسى ، ووحدتها الجافة التى مرت علىَّ . وأصوات الطريق الذى لم أكن قادراً على الخروج إليه . كدت أدمع عندما استعدت وهنى الذى كان ، جئت إلى أرقى بلحظة ليلية نائية بعد عودتى من سهرة قضيناها معا توقفى فجأة أثناء سيرى ، إدراكى أن حديثنا عما كان يفوق حوارنا عما هو آت ، أيام نائيات ظننا يوما أنها الغاية . أنها لن تبيد أبدا ، انقضت ، ولت ، إذا بالزمن يسرع فلا نجلس إلا لنستعيدها . أورثنى هذا شجى ، ذلك مالم تعرفه تلك البنية عنى ، مالم تعقله أن وجودها تجاهى كان يستثير عزما ظننت أنه ذوى ، وقدرة على البوح طال خمودها ، لكن أنَّى لها ذلك ولم أخاطبها إلا فى جمع أنَّى لها الاطلاع على موروثى وهى لم تتجاوز العشرين إلا بسنوات أربع . وتلك نقطة يتطلع فيها المرء إلى الغد ، لا يخشى الطوارق ، الدواهم ، يسألنى بعض من لا يعرفنى ، لماذا تبدو مسناً وأنت لم تتجاوز الأربعين إلا بسنوات قلائل ؟. معهم الحق يا أخى

إذ أنهم لايعلمون ، لايعلمون أننا مررنا بمراحل تهدو متقاربة لكنها متباعدة . ولم يكن الحمل يخصنا ، ولكنا لم نلقه ، ولم نتخلص منه ، إذ أنه متصل بقومنا ، وجمعنا . بعض مما عرفناه كان ممكنا أن يهدد جمعا ، لو أفضت فى هذا ، لن أكف ولكننى أضرب لك مثلا بعصر انقلاب الأحوال . وانعكاس القيم . الذى عشناه وعصف بنا فى سبعينيات زماننا ، وأننيِ لمحدثك يوما عن رسالة ضمنتها بعضا مما جرى لمن عرفتهم وشيعتها إلى صاحب لى آثر الغربة . وسميتها رسالة البصائر فى المصائر ، لذا أقصر الآن ، ولا أفصل ! . إنما طال تلميحى لأنبهك إلى ماعنته البنية بانبثاقها المباغت ، بحضورها الوهاج ، بحيويتها ، فكأنى قصدتها لأنهل منها ترياقا يجدد مابلى . وينهى عبوسى الذى طال . لو أنها صدتنى لانثنيت ، لكنها .. سخرت . أليس ما أتته عين السخرية ؟ بلى ، شيئا فشيئا إتقد دماغى . لمت ذاتى ، كيف أقذف بنفسى تجاه من أجهله . هل بهرنى جمالها ؟ كيف سأطيق الرحلة غدا وهى على مقربة ، فى نفس الطائرة ، لن أتطلع إليها . لن أتجه إلى أى موضع تقف فيه ، وإذا أقبلت نحوى وخاطبتنى ، فسأبدى لها الجفوة ، سأسمعها مايقوله محب بعد انقلاب العشق إلى بغض . مع أن المحبة لم تمتد بيننا ، وما جرى هبوب من عندى تجاهها .

أغمض عينى ، العتمة تهن فى الخارج ، والنوم قصى . أما قلبى فيعدو جاهدا فى أثرى ، أحمله مالا يطيق ، أخشى ما أخشاه أن يتعثر ، أن يكبو ، أمامى سفر طويل ، إنى بحاجة إلى الراحة ، فلماذا

لا اهجع ، لماذا لا أغفو ، هل نامت هى مباشرة بعد انصرافنا ، أم أنها تتقلب بين ذراعى رجل من قومها ، استدعته بعد ذهابنا ، ميراثه ميراثها ، وما احتاج مراحل متوالية لأشرحه ، لأوصله لها ، يدركه هو فى لمحة . قمت من رقادى ، متطلعا إلى رمادية الضوء ، إلى طلائع النهار الآسيوى البكر ، ما أنأى المسافة بين مضجعى وبينى ، وما أقربها ، تطلعت إلى الصوان المقابل ، إلى دورق المياه ، إلى الراديو الصغير. وحقيبتى التى لم أخرج محتوياتها ، أما اللوحة الجصية فعلى مقربة منى . كان من المفروض أن تكون بين حاجاتها الآن ، أطرقت ، تساءلت ، لماذا أقسو عليها ؟ ماذنبها ؟ أنها لاتعرفنى ، وما أنا إلا فرد فى جمع ، ذات جمال مثلها لابد أن القصاد طرقوا السبل إليها ، وأسمعوها من الكلمات أرقها . ألم تقل لى عندما أظهرت البادرة الأولى ..

« .. وكيف أصدقك ؟؟ .. »

غير أننى اتكلت على احساسها الأنثوى ، فما عندى تجاهها إلا صدق النوايا . بدأ لى أن مكنونى سيصل إليها ، لكننى كنت أعول علىَّ بى . أو أطلب العون منى ، فما أضيق الساحة وأصعب الأمر ، هكذا اكتمل نهار جديد من عمر الدنيا وأنا موزع . مفرق ، متحامل عليها ، مبرر لها ، قاسٍ ومشفق معا ، أتطلع إلى الفراغ . إلى النهار الجديد ، لو أغفو نصف ساعة ، غير أن جسمى كلما اقترب ولامس المضجع . نأت الخواطر وفرت ، هكذا فارقت الفراش وقفت متطلعا عبر زجاج الشرفة . مشتعلا بنصبى ، محاطا بوحدة

صماء ، انحنى ببصرى متمهلا على الحديقة الأمامية ، أقصد شجرتى التوليب ، أوشك على ذرف وجدى ، من هنا كان البدء ، بينهما سعت ، فى مجالها اكتشفت مدارها ، كنت يا أخى أصغى إلى الصمت السارى عندما وقع ما استهدف دفق قلبى ، إذ رن جرس الهاتف فجأة ، رنينا حادا ، متصلا ، ماذا .. هى ؟ أتدعونى ؟ إذن .. هل مرت بما مررت به ؟ ألفها الأرق كما لفنى ، أتدعونى لنقابل النهار معا كما كنت أشرع فى الزمن القديم ؟ قطعت خطوتين إلى الهاتف ، وعلى ملامحى مشروع عتاب ، لا أدرى كيف سيكون جوابى ، أمسكت علىّ أنفاسى ، غير أننى فوجئت برجل يتكلم لغة لا أعرفها ، مجهولة عندى تماما ، لم أفهم ، قلت بالعربية متجهما .. لا أعرف ، لا أعرف ..

من هذا ؟ من أية جهة ؟ ماذا يريد ؟ كيف فى هذه الساعة ؟ خطأ أم قصد؟ أم محاولة للتأكد من وجودى فى الغرفة؟ لا أدرى.. نفضت هذا عنى ، تطلعت إلى ساعتى ، الثانية والربع فى القاهرة الآن ، أضفت أربع ساعات ، اجتزت الحد الفاصل بين ذروة ارهاق وبين بدء تعب جديد ، يحوى القديم ، وليت وجهى تجاه النهار القادم ، فت إمكانية القدرة على النوم بمدى سحيق ، واجهت الضوء المتزايد ، نضاحاً بضرى ، بأساى ، منطويا على ما استقر عندى من نوى ، كنت مستسلما لتوالى مجىء النهار الجديد . فأنا يا أخى حسير ! ،

مـواقـع الشُّهُـب

تحاشيتها !

فى الصالة المتوهجة بضوء آسيوى انتحيت ركنا قصيا ، مغمضا عينى المجهدتين بين لحظة وأخرى منصتا إلى وتائر تعبى ، داخلى ظلال من شجر توليب ، وقباب ، وفضاءات لا نهائية ، ومسارب بعيدة لمياه منحدرة ، عما قليل سأجوز الفراغ ، تلك أرض ربما لن أطأها مرة أخرى . وهذه ديار لن أجوس خلالها ، مقامى بعيد ، دنا صاحبى حاورنى ، تجنبت الخوض أو التلميح ، وعرف هو فالتزم ، قال إن اجهادى واضح ، قلت إننى أرقت بعض الوقت ، لم أبح له يا أخى بسهادى ، لم أقل له أننى ماغفوت منذ صباح أمس ، وإن ما أخشاه ألا يتم قلبى رحيله معى ، لكم أثقلت عليه ، لكم حملته مالا يطيق . ساعات طوال من الرحيل . وهاهو اقلاع وشيك ، أتأهب لاقلاع مغاير ، من شرق إلى غرب ، من أرض إلى أرض ، من مواقيت إلى أخرى ، طاويا خيبة أمل ، ونكوص بعد اقدام ، سرى فى الجمع تأهب ، فوق أرض المطار اصطف عدد من الصغيرات ، ملامحهن

الآسيوية جميلة بادية ، يحملن باقات زهور حمراء ، ملت مقبلا الطفلة ، حدقت فى عينيها الواسعتين ، المقبلتين ، هاتان لن أقابلهما مرة أخرى . لن أطالع نظراتهما ، تلك لحظة لقاء عابرة ، يعقبها تفرق ، كتماس الشهب ، تعرف عنى يا أخى طول تأملى لهذه اللحظات العابرة ، ولعلك محتفظ بعد برسالتى إليك عن الاغتراب واللقيا ، لعلك تذكر وصفى لتلك المدينة الحدودية الهادئة . المدثرة بالأشجار والنبات ، وخطوى فوق الأرض المبلطة بالحجر ، عندما ظهرت شابة ، واثقة ، متزنة الخطى ، قاصدة !. اجتازتنى ومضت مبتعدة مخلفة حضورها القوى فى الفراغ ، خلف ظهورها العابر عندى هياما غامضا واستفسارات شتى ، عرفت مثل هذه اللحظات كثيرا فلن أثقل عليك . إلا أننى أقول عن حنوى بالنظر تجاه تلك البنية الصغيرة التى ستسعى بأرض وأسعى بأخرى ، وربما لن نلتقى أبدا ، كما لم نلتق قط ، صافحت القوم ، وعند اتجاهى صوب الطائرة الضخمة ، الجاثمة ، لمحتها ، تمضى بين القوم فارهة علامة دالة مدلة ، تتناول باقات الزهور من زميلاتها ، تجمعها . تضحك تبدو لاهية . فهل لى أن ألوم ؟ هل لى أن أعتب ؟ هاهى تمد الخطى غير عابئة بالالتفات حتى ، تتخطى البعض ، ترتقى السلم وثبا ، احرص على تباطؤ . ما أوده أن ألوذ بمقعد منفرد ، أن أجاور من أجهله ، اغفو ولو ساعة ، اخفف من كددى ، المقاعد الأمامية مشغولة ألمحها ، عند نهاية المقصورة إلى اليمين ، تقف ولم تقعد بعد ، حدت إلى الممر

الأيسر ، تقدمت غاضا بصري ، متحاشيا النظر إلى الفراغ الذى تشغله . وددت سرعة التوارى ، التدثر بوحدتى ، غير أن ماجرى يا أخى عجب . فوجئت بيدها تمتد لتمسك معصمى تقدمت صوبى أثناء اشاحتى إلى الجهة الأخرى ، لم تنادنى ، لم تلفظ اسمى ، إنما قصدتنى ، أشارت ، ولم يكن بوسعى إلا التلبية متوثب الروح ، خافق القلب ، صامت ، لا نطق ولا قول ، إنما كلى بهت وغيبة عن حضورى ، رأيت معطفها مطويا . مسندا إلى المقعد الشاغر حتى لا يقربه غيرى ، أما مارقرق وقتى وذرى تعبى فمرأى الزهور ، الباقات التى جمعتها من زميلاتها ، ثبتتها فى ظهرى المقعدين الأماميين ، وزعتها بالتساوى ، فى تنسيق بديع ، مرة أخرى بسطت يدها مشيرة إلى الزهور كأنها تقول بالصمت : هذا من أجلك .

توقفت ، جازت إلى المقعد المجاور للنافذة ، وعندما استوت ، ولت وجهها متطلعة إلى مالا أدريه ، أسلمتنى يدها ، فتخللت أصابعها حتى امتزج احساسى باحساسها ، فلم أعد أدرى أصابعى من أصابعها حتى لو شئت تحريك أصبع لعجزت ارادتى عن تحديدها ، كنت أستوى على مهل فى حضور جديد .

اعلم يا أخى أن الأمر لم يكن بيدى منه قدر ولو يسيرا ، لبيت والرضى متمكن منى ، فكأن غضبى وحزنى لم يكونا إلا عتابا دقيقا لم ألفظه ، أو تمهيدا لما صرت إليه . ما إن جاورتها صامتا ، ساكنا ، متشاغلا بالنظر إلى الزهور ، متأملا فى مغزى صفها لها

ودلالة الأمر حتى ولى ما عانيته ، فكأن أرقا لم يقضني وسهادا لم يطرقني ، بل إنني لمت نفسي لسوء ظني ، وتحاملي عليها . لا أظنك تعد هذا ضعفا مني ، حتى وإن بدا لك هذا فلا ضير عليَّ ولا خجل أبديه ، تلك لحظات انتفت فيها الحسابات ، حرام فيها القول بما يجب الاقدام عليه ، وما ينبغي تجنبه ، في حضرتها لا اتقنع ولا استعير . ولا استعين بما ليس عندي . هذا حالي أبسطه كما هو . نقيا صافيا كقطرات الغيث قبل ملامسة اليابسة ، ربما تود الإحاطة بما جرى وكان ، أني مذكرك ، منبهك إلى أن مثل هذا صعب تدوينه مفصلا بعد انقضائه ، فما يقال يفنى عندما يتلقاه الآخر ، وعند استعادته أما النظرة فتكتسي المعنى وتنفذ مندمجة بذات المتلقي ، العجيب أن تعي تذري ، وارهاق قلبي ولي ، منها سرى دفق إلى أوصالي ، وشيئا فشيئا لم يعد إلانا ، فكأن القوم لايحيطون بنا ، علقت بابتسامتها الثرية ، وخضعت لألق عينيها ، أما جبينها فبدا رحبا ، لا نهائيا ، وقامت بيني وبين غمازتيها صلة ، انثنيت إلى توالي ابتساماتها ، تلك المضمومة منها ، أو التي تحاول لملمتها قبل انفلاتة ربما لا تدرك عقباها ، أو الهادئة المصاحبة لايماءاتها أما هذه التي تضيء ملامحها كلها بضي خفي المصدر ، فلها شأن يغنيني .

الأمر شاسع يا أخي ، يا أعز صاحب ، وربما أفردت يوما رسالة أنبئك فيها بالابتسامات وتعاقبها ، والالتفاتات وتنوعها ، وانفعالاتها الشتى ، والاندفاعات المفاجئة ، والبوح ، والزمن وما

حفل ، والوقت الذى جرفنى وطوانى واحال ماكان منى إلى دوارس ، غوابر ، فأدرك يا أخى مامر بى ، وفق الله أيامك . ماذا جرى منها ومنى خلال هذه الساعات الخمس ، ونحن مابين الثرى والثريا ؟ أقول بعضا من كل ، فى البدء تناولت سلة فيها لفائف ، أرتنى ما اشترته فهذا عطر من أعشاب ، أتت به من بخارى ، وهذا كتاب عن مساجد سمرقند ، عجبت ، كيف فاتنى شراؤه ؟ ضحكت ، أخرجت رغيفا أوزبكيا ، قالت إن اسمه « نون » فاستعدت مذاق الخبز الذى ظننت أننى غير ملاقيه أبدا ، ضحكت مرة أخرى ، قدمت زيتونا وعنبا . قالت إنها لاتتناول فى العادة عشاءها ، لكنها أحيانا تجوع فى الليل . فتؤثر الاحتفاظ بطعام يسير ، كدت أهفهف فرحا ، أنها تطلعنى على شىء من خصائصها ، قلت إننى مثلها لا أتناول إلا عشاء خفيفا ، كنت أسعى متلمسا ولو شبها بسيطا بينى وبينها ، هذا حال لابد أنك مدركه يا أخى ، لكم سررت عندما عرفت أنها مولودة فى نفس شهرى ، وما بين يومى ويومها ستة عشر يوما فقط ، غير أننى تداركت ضاحكا ، فرق الأيام قليل ، ولكن السنوات شاسعة ، عشرين كاملة ، صبحها قريب ، وأصيلى سار ، وداخلى إلى غروب ، رددت تاريخى ، قالت إنها لن تنسى أبدا ، ولما بدأ غيم من وجومى ، شردت لحظة ، تساءلت عما أفكر ؟. قلت إننى أفكر فى المكان الذى سيكون فيه كل منا بعد سنوات عشر ، قالت ، لماذا تشغل نفسك بما لا نثق من وصولنا إليه ؟ ثم قالت ، هذه

الطائرة معلقة بين السماء والأرض ، وخطأ أبسط مما تتصور يمكن أن يضع حدا للنهاية ، فلماذا لا نقترن باللحظة ؟.

لم أقل لها يا أخى إن اللحظة التى نعيشها سرعان ماتنقضى ، لن نمسك بها أبدا ، دائما تولى ، تفلت ، فنحن فى فوت دائم ، أما جلستنا هذه وقربنا ذاك ، فسيستحيل هذا كله إلى صور نائية ، استرجاعها بالمخيلة ، لم أقل لها إننى أرى لحظة افتراق واللقاء متصل ، وهذا جل اغترابى ، وصميم قلقلتى ، لم أقل لها ذلك ، لكنها أدركت . فكت رموز سماتى ، نفذت إلى لب صمتى .. قالت مرة أخرى .

« تبدو مهموما »

ثم قالت :

« تبدو متقدما عن سنوات عمرك . »

ثم تساءلت :

« لماذا لاتعرف آنيتك ؟»

قالت إنها منذ ثلاث سنوات ، أجرت عملية جراحية ، رفضت المخدر . أصرت على اجرائها وهى مكتملة الوعى ، الألم له حد لا حد بعده ، الألم يقتل الألم . لكنها أدركت فيما بعد أنها لم تطق الغياب لحظة واحدة عن وقائع الحياة ، قالت إنها فى رحلة كهذه تضن على نفسها بالنوم حتى تسمع وترى .. قلت لها إننى عندما كنت فى المعتقل منذ عشرين عاما ، تأملت رفاقى الستة والعشرين . العنبر ضيق . معتم ، والموقع قصى عن المدينة ،

بعضهم يروح ويجيء . عندما جاهرت بخاطرتى ..

« ترى أين سنكون بعد عشر سنين ؟»

تطلعوا تجاهى صامتين ، مفاجئين ، ثم حاول كل منهم النطق والتخمين ، كانت السنوات العشر تبدو نائية ، ممتدة ، مسافة شاسعة ، خطا الزمن ، ونقضت عشر فى أثرها مثلها ، وتفرق كل منا إلى جهة . وبعضهم رحل عن دنيانا ، ومنهم من نسيته تماما مع أننا قضينا شهورا ستة متوالية معا ، مهددين معا ، نأكل من ماعون واحد ، ولو أنى شئت تفصيل ماجرى لكل منهم لفاض الأمر ، لكللت ، تقلبت المصائر بهم ، وتفرقت السبل ، كانت تصغى إلىَّ باهتمام يا أخى لم يقابلنى احد بمثله . ثم تساءلت عن السبب الذى أدى بى إلى دخولى المعتقل ، ثم سجنى ، أفضيت إليها وصرحت بما لم أقله تحت وطأة الإيلام البدنى ، والنفسى ، غير أن ما أفلت منى واستوقفها قولى :

«كنا نحلم بتغيير العالم !»

تساءلت بجدية :

« ولماذا .. ألا يمكن تغييره حقا ؟»

تطلعت إليها صامتا ، كنت عند نقاط معينة أحيد . تذكرت صاحبى ، أستاذ الهندسة القديم ، الذى يجلس على مقربة ، تفاؤله الأبدى ، وابتسامته فى أصعب الظروف ، وددت القول إن الأحلام فى البداية كانت شاملة ، ومع السنوات تواضعت حتى أصبح التعلق بالبديهات حلما . الأمور المفروغ منها . المتفق عليها بين

الكافة ، التى ظننا فى بواكيرنا أنها لن تكون موضوعا للمناقشة ، رغبت فى الإفضاء إليها بهذا كله ، غير وإننى لملمت ، طويت واحجمت ، فالأمر يحتاج إلى تفسير ، واننى آتيها به ، غير أننى مرجئ ذلك ، فما أحوجنى أن أعرف عنها .

قالت إنها الابنة الوحيدة ، تدرس المعمار منذ سنوات ، لكنها تعمل أيضا بتدريس اللغة الإنجليزية ، تعيش مع زوجها فى بيت من حجرتين ، ترتب أموره ، تدبر شئونه ، تعد الطعام ، أحيانا يشاركها أيام الأجازات ، إنه رقيق ، لكنه شاب ، شاب جدا ، صغير .

لا تفوتنى نبرة صوتها ، مرة أخرى التزم الصمت عند سماع ذلك فالأمر حرج ، تلفتت ، والتفاتاتها يا أخى حادة ، مباغتة ، غير أنها لطيفة الوقع ، تلقى عندى دعة ، كما يطيب لبصرى عندئذ المكث عند أفق وجهها الجانبى . له جمال بذاته ، يختلف عن حضور ملامحها إذا تطلعت إليها بالمواجهة ، باغتتنى ، اتجهت صوب يدى ، بسطتها ، حدقت فى خطوط راحتى ، لم تقل شيئا ، وعندما بسطت كفها للمقارنة ، تدفقت تجاهها ، أحطت بيدها حتى سرى إلىَّ نبض أوردتها الخافت وحرارة جسدها ، رفعتها متأنيا ، قبلتها ، بل قل إننى مسستها بشفتى ، غير أننى أفقت ، بقيت منحنيا ، بدت شاخصة ، متطلعة . وعندما مست شعر رأسى ، طاردت دقات قلبى بعضها ، كبحت زمامى ، هذا أقصى مايمكن صدوره عنى ، وجمع على مقربة ، بعضهم يسمع

ويرى ، بقى عناق أصابعنا ، وارتدت ملامحها إلى طفولة ، إلى مراحلها الأولى ، فأطلعتنى على مالم أره . لا أدرى متى قالت إنها تسبح مرتين أسبوعيا حتى فى الشتاء ، تمضى للسير فى الغابات الممتدة ، المحيطة بالمدينة ، عند لحظة معينة ، صعب تحديدها اتصلت الحميمية ، وتوحدت الأسباب ، فصار كلانا يتلقى عن الآخر فى اللحظة عينها ، وفجأة ، انتبهت إلى تسرب اللحظات منى ، فبدأ وعيي بالمغادرة ، ووجدى الذى سيعقب الانقضاء . طفت من داخلى ألحان عتيقة ، وبقايا أشعار ، طلبت منها أن تصغى ، فهى لن تخاطب حقا إلا بالغناء ، هل تعرف آلة القانون ؟ استفسرت فشرحت موضحا ، رفعت إصبعها .. « السانطور .. »

قلت إنه يشبهه ، غير أن استخراج أنغامه بالأصابع ، وليس بالطرق . إننى أتقن العزف . لو بصحبتى القانون لهيأت مجلسا لى فى هذا الحيز الضيق ، ولا أكلمها إلا عزفا ، استعدت بخيالى مواقع الأوتار . صفرت النغم بفمى ، هكذا صرت العازف والمصدر معا ، حتى أتممت على مسامعها بشرف سماعى رصد أتقنته منذ زمن ، صار سلوتى إذا كوانى وجدى ، أو طحا بى شوق فى الضلوع عاصف ، أصغت دانية منى ، هزت رأسها مرتين ، ومن أعطافها سرى إلىَّ هبوب ، بدأت أتلمس دربى إلى رائحتها الخاصة ، تضاعف وجدى ، فنوعت واسترسلت ، فلما فرغت ، قالت باشفاق ..

« هذا جميل ، شجي ، لكنه حزين .. »

اعتدلت ، واجهتها بكلى ، فى كل لحظة يقلع من عندى وفد إليها ليبلغ وينبئ . قلت إن من كان مثلها لا يخاطب إلا شعرا ، بل لابد من ايجاد لغة تخصها ، لا تخاطب بها إلا هى ، ليس مثلها مثل . ملت فلاقت جهات وجهها جهاتى ، استدعيت من دقائق ذاكرتى شعرا ، أنشدتها بعضا مما احتوى حالى ، ما تنبأ به شعراء عاشوا قبلى بقرون طويلة ، ماعرفوا أنى ملاقيه ، اجتهدت لنقل المعانى إلى الإنجليزية ، وعندما قالت إنها تذكر بيتا للمتنبى هفهفت فرحا ، وافانى اشعاع من عينيها بمدد فبدد تعبى ، وسقتنى من منابعها فتقلبت بين حركة وسكون ، أبصرت دقائق غابت عنى ، أمسكت بما يفصل الظل عن أصله ، وأدركت مابين الصلب والترائب ، فاطلعت على التكوين فى أوله ، كنت غير غائب عن هيئتها الكلية ، والجزئية ، عن هيئة جلستها ، إطلالتها ، هيئة تحولها من جانب إلى آخر ، هيئة إصغائها ، ابدائها العجب أو الدهشة ، أو بث اشارة خفية لاأخطئها أبدا. كنت ياأخى كمن ينفض عنه كمونا طال ، أو يقصى البلى فيصير إلى عالم يتوقعه ، وما لم يخطر على قلبه ، أو عقله ، ولا جاس بخباياه ، ومن أغوارى نما النداء منى والحض ، أن أقوم ، أن أجثو وأقترب . لكن مازال الأوان بعيدا . فافهم ياأخى ماحجبته وما لم أقيده لصعوبة تدوينه أو تحويله إلى لفظ ، لعلك يوما شافعى ..

انـدلاع اللحظة

أخى ..
من القائل :
بلينا ، وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال ، بعدنا والمصانع
من ؟؟

هلا أجبتنى ، هلا ساعدتنى ، دلنى وردد القول ، أما أنا فإذا سنحت الفرصة فسأنقشه ، سأخطه على واجهة معمار نابع تصميمه من صميمى ، لما استوى حضورها عندى . وتأهبت روحى لتقلع من كدوراتها أيقنت أو قل بلورت ماظل سنين جاثما . أقصد تعلق بالبناء ، ودراسته ، وترميم القديم منه ، وهذا ما أتقنته ، وذاع عنى ، أنه الرغبة الدفينة يا أخى فى عدم الزوال ، فى البقاء . فى تثبيت اللحظة التى يستحيل إيقاف مروقها . انفلاتها ، فكأنى أعوقها بالحجر . وإن كنت عاجزا عن تأخير حينى ، أو استعادة ما أفلت منى . فى غمار نشوتى يا أخى ، يا أعز الأقربين ، على شفا استيعاب عبيرها ، والطائرة تميل صوب الأرض ، ويدانا

متشابكتان ، وكتفانا متماسان ، اندلع أمامى الخاطر النكد ، فتجاورنا يوشك على انفصام والمتاح لى ساعات ، ثمانية وأربعون ثم يقذف بى عبر الفراغات العلا ، أصير إلى جهة . وتبقى هى فى جهة ، فماذا أنا فاعل؟ ماذا سأجنى ؟ هكذا أرى لحظة زوالى ، ونأيى ، أرى عين افتراقى معى فنح وردد مع القائل :

إذا هى مرت لم تعد ، ووراءها
نظائر ، والأوقات ماض وقادم
فما آب منها بعد ماغاب غائب
ولا يعدم الحين المحدد عادم
قل معه يا أخى :
أمسى الذى مر على قربه
يعجز أهل الأرض عن رده

هكذا بذلت جهدى لأدارى أساى ، ناديت نفسى ، أن أتجلد ، هذا ليس إلا الفراق الأصغر ، وبعد ساعات يبدأ الفراق الأكبر. قامت بعد توقف الطائرة . أخرجت من حقيبتها غطاء رأس من الفرو ثقيلا ، نافر الشعيرات ، له فرادة . فلم أر مثله . كنت أتأهب لتلقى أول بواده للوجد بعد الصبابة ، لا أقدر على معانقة اللحظة كما أشارت . فكل لحظة إلى بلى صائرة ، ولما ارتديت معطفى ، وتأهبت لملاقاة البرد الصقيعى ودعتنى بابتسامة ، لابد أن تمضى إلى الهندى وصحبه ، غابت عنهم طويلا هى المكلفة بمرافقتهم ، أومأت صاغرا ، أشارت إلى

غد ، حددت السادسة ، أي سأقضي ليلة ونهارا فى مدينة تسعى فيها ، تظلني الغيوم ونفس السماء ، وأتدثر كما نتدثر هى من شتاتها الكونى ، لكنها فى مكان ، وانا فى آخر ، كنت أنوء تحت تعبي الذى بدأ بمجرد ابتعادها عنى ، غصت فى مقعدى ، محملقا إلى الأشجار المتتابعة ، المكللة بالجليد ، أخضر ، وأبيض ناصع ، نقى لايشوبه كدر ، إلى كنيسة زاهية ألوانها . الأحمر صريح . الأصفر قوى . الأخضر خصب . أما القباب فسرمدية ، إلى ضباب كثيف يخفى نهايات المبانى الضخمة وقممها ، كأنها تنهض من دعائم الأرض الصلبة إلى عنصر الغيب ، بدأ ضوء النهار واهن : والقوم يسيرون فى أرديتهم الثقيلة ، يمضون فوق الأرصفة إلى غايات شتى ، أما غايتى فوشكة على التبدد ، ساعات وأغادر ، ماتبقى من زمن غير مساعد ، كيف يمكن لصلة أن تنمو . ولوصل أن يجرى ، إذن .. مايعنينى أن أبلغ ماعندى ، ما أراحنى أننى كشفت لها قبسا . لو جئت مرة أخرى وهذا صعب ، وعر ، فهل سألقاها هى ، هى ، وهل تبقى اللحظات المتوالية إنسانا على حاله ؟ عند باب الفندق ، فوجئت بها تنزل من العربة ، يميل رأسها قليلا ، تضم شفتيها ، أما الابتسامة فبوجهها كله ..

إلى غد .

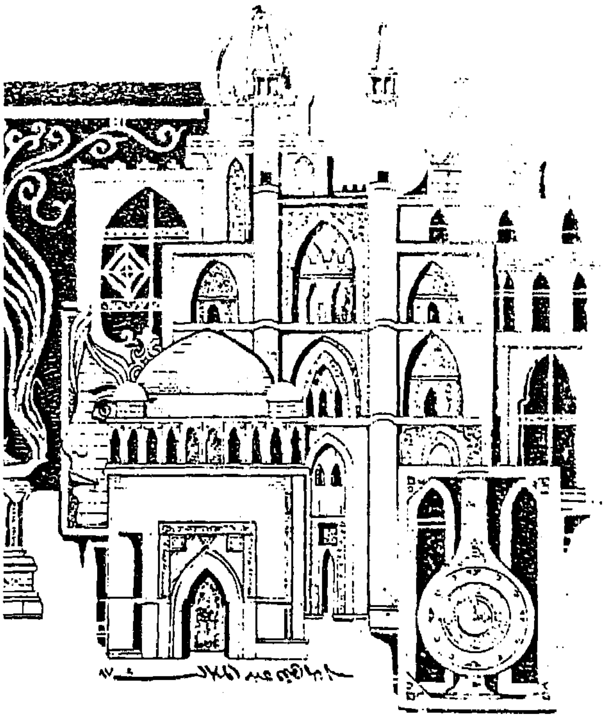
قالت مؤكدة : السادسة ، وددت لو لذت بسموقها ، لو احتميت بوارفها ، لكن .. لم يكن من الوداع المؤقت بد ، ولا من الانفراد مفر ، فإلى من أخلو بعدها ؟ رغبت التوحد بذاتى ،

واستدعاء ماانقرض من وقت ، هكذا هرعت إلى حجرتى ، محتميا بهدوئها ، متوضئا بصمتها ، بفراغها ، مستلقيا مستسلما للرؤى ، بدءا من القباب السمرقندية ، والمداخل الشاهقة ، والحضور البخارى ، وحديقة القصر الصيفى ، إلى مشيها ، إلى ظهورها بين شجرتى التوليب ، إلى تقلبها من طور إلى طور فى ليلة سهرنا الحميمية ، إلى أثر لا تلحظه عين يتركه قوامها الباسق فى الفراغ الذى تجوز عبره ، كنت أصغى إلى تدفق الحياة فى أوصال المدينة المدثرة بالثلوج ، والشجر الذى لم يبل اخضراره فى الصقيع ، وعندما أغمضت عينى ، كانت تغمرنى ولم يكن لى عاصم بعد اليوم .

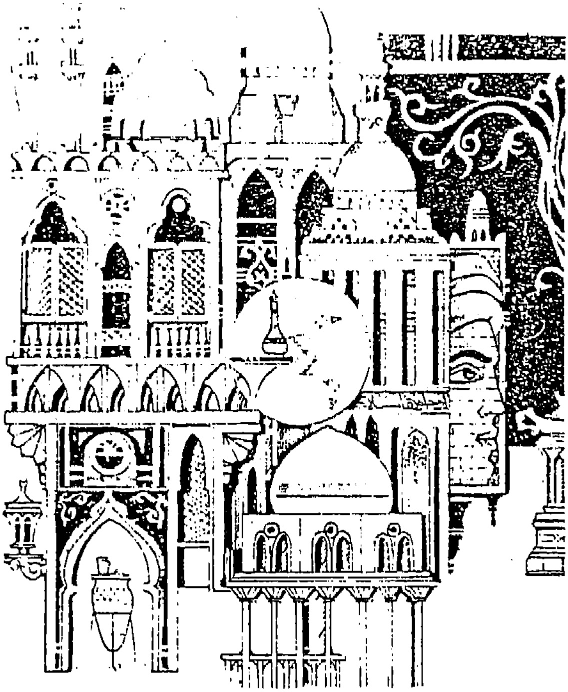
اعلم يا أخى أن ماينتهى أحيانا يبدأ وإن كان غير موجود ، وثمة ما نراه بالنظر ، ونلمسه وندركه بالحواس إلا أننا نفتقده ، وآخر إذا ولى وغاب عنا صار متمكنا منا ، وصرنا منه فى أمر سديد .

هذا عين حالى الآن ، وجوهره ذلك العصر يوم أوبتى من آسيا الوسطى ، أغلقت بابى ، أقمت ارصادى ، لم ارفع سماعة الهاتف رغم توالى الرنين ، لم أعبأ ، هى على مسافة يمكننى أن أقطعها مشيا . بعد ليلتين أصير إلى قارة . أعود إلى نظام ، وتبقى هى هى فى نظام آخر ، هذا حالى معها . هذا ماقدر علىّ .

فى هذا العصر الذى أغلقت فيه بابى . لاح خسرى ، أدركت أننى أدرب نفسى على فراق يقينى ، واننى استدعى إلى اللحظات



الآتية مكابدة مقبلة ، فعبثا قولها . « عش اللحظة »، ودعك من آت قد لاتبلغه ، إنما أنا ماكنته ، ماجبلت عليه ، وعندما ثقل الليل تساءلت ، أين هى الآن ؟ فى أى مكان تخطو أو تجلس أو تتأمل فى عين هذه اللحظة ؟ تماما كما سيكون حالى لآماد طويلة مقبلة ، برغم إعيائى فى فورة حجبت عنى الاغفاءة والهجعة ، أى من أصابنى ؟ أنا الحزين ، المبتعد ، كنت أدرب النفس على أن مامررت به اكتمل وتم ، مهما جاءت به الساعات الآتية . القادم لا أتوقعه وإن تمنيته ، الحق يا أخى ، أن شكا راودنى فى وعدها بالمجىء لترانى ، وأننا سنلتقى مرة أخرى ، على امتداد النهار التالى خرجت انتقلت ، عبرت الشوارع العريضة ، خطوت فوق الثلوج



المزاحة فوق الأرصفة ، لبيت دعوة من صاحب لنا ، كنت فى كل لحظة ، عند كل ايماءة أو التفاتة موقناً انها ترقبنى من مكان خفى ، أنها توشك على مناداتى ، وكنت مهيأً لأن ألبى ، حتى إذا ولجت باب النزل الفسيح طالعتنى هى ، هى بوجودها ، بحضورها ، بسناها ، كانت بصحبة زميلتين ومن تتطلعها ، من نظراتها صوبى أيقنت أنها لم تقف إلا لانتظارى ، ولم تأت إلا لترانى فشب عندى توق متجدد . ما أن لمحتنى حتى أنهت حوارها ، أقبلت نحوى ، كانت شاهقة كنصب حى للأنوثة ، ترتدى قميصا من حرير ، يشى بمشد صدرها . وحزاما جلديا عريضا أبرز دقة خصرها الذى أوشك أن يكون رمزا ، عجبت ، إذ كيف يمكن أن يحتوى ؟ كأن فراغا يفصل نصفها العلوى وقدها

السفلى ، وعندما تقدمتنى كانت تسرى ولا تمشى ، أما خطاها فصهرت ماعداها ، الأبواب المطلة على الممر ، والجدران القائمة . والبسط المفروشة ، والمصابيح الواهنة ، وأرقام الغرف ، لم أعد أبصر إلا هى ، ولا أرى سواها ، وعندما دخلت الغرفة ، وعبرت إلى المقعد الوثير ، توقفت رانيا ، مدمدماً فى قرارى ، كطائرة تدرج ثم تتوقف لحظات قبل الإقلاع . كانت أشواق طال همودها تستنفر ، تبزغ ، وأحاجٍ لم تحل ، وأسرار تراكمت عبر المسيرة كنت موشكا على الافضاء بها ، كانت تضوى ، أما وجودها الحسى فيلغى ماعداه ، انتشت داخلى طاقات عتيقة ، وتجددت منابع جفت ، تهيأت لنثر درُى ومرجانى وتقليب صُحفى الأولى ، وتجديد أحوالى البالية ، لما رأيتها متطلعة إلىّ ، مستفسرة ، متأهبة ، منتظرة ، لمحت البشارة آتية من ضيا عينيها ، لم أنثن ، لم أضيع لحظة ، إنما على الفور بدأت الدعوة .

جثوت !

شيعت لثمى ، وتقبيلى إلى كافة ماطلته من عالمها الحسى ، بدأت بيديها ، وطفت ، ثم عدت ، أنفاسى زفير بلا شهيق ، حتى إذا لمست جدائلها وتنسمت عبيرها انقلبت شهيقا ولا زفير ، أثناء قدومنا من آسيا الوسطى تعرفت على حدود أطيافها ، رائحتها الخاصة ، غير أنى لم أتوغل ، لكنى عندما استنشقت نسائمها ، هبوبها ، تفتحت فى صدرى طرائق ودروب ومسارب ماظننت يوما أنها عندى . عانقت رائحتها ، تعلقت بها ، اقتفيتها فى

شعرها ، فى جبينها ، ارتميت تحت فتحتى أنفها حتى أتلقى من صدرها خبرا ، فى وجنتيها اللتين شعتا ضوءاً خفيفا حلوا ليس من مكونات هذا العالم . استنشقتها من طيات ثيابها ، من أطراف ردائها ، كنت أبغى تثبيتها داخلى ، ادخار جوهرها ، الامساك بلبها حتى لتخرج من مسامى وأنفاسى ، فإذا نأت بى الديار ، وتقادم العهد بهذه الانتفاضة ، أمكننى استعادة بعض من ديمومتها ، تعلقت بيديها ، تهجدت نظراتى صوبها ، انحنيت ملامسا أصابعها بجبهتى ، كنت أخلق طقوسى ، لا سابقة لها ، ولن يكون ، رددت اسمى ، اسمى لا غير ، انتشيت لما أصغيت إلى حروفه المكونة مصاغة بنطقها الغريب ، تطلب منى أن أكف ، أن أتوقف ، لفنى صوتها السارى إلىَّ ، تراجعت برأسى قليلا ، رأيتها فى خلق جديد ، فى كل مرة يا أخى تبدى لى ياأخى ملامح ادركها لأول مرة ، عدت أهوى إليها. تجاهها ، ارتطمت ، حططت ، طوقت عبيرها مرة أخرى . رائحة يا أخى ليس لها مثل ، اعلم يا أخى أنها أمم من روائح شتى ، كلها طيبة ، مسكرة ، فمنها طيب منبعث من ثنايا شعرها ، وبقايا عطرها ، واشعاعات وجودها ، وثناياها النائية ، هذا يدق عن الاحاطة ، يستعصى على الوصف ، لو أنى قدرت على الاستعارة ، ولو قبسا ، لاستمر بعثى ونشورى ، لو أعاننى الدهر على الوقوف عندها مرة أخرى لبلغت ماانطوت عليه الفكرة ، لجاوزت مسافة القدرة ، لتجدد عطائى بغير حساب .

فاليريا ..

ناديتها همسا ، فجاوبتني بالنظر الحلوم ، رجوتها أن تقف ، لبت يا أخي لبت ، سألتها أن تخطو ، فلما جاوبتني ، حاولت معانقة الفضاء الذى اجتازته ، الذى عبرته ، فلما أعياني الأمر . قبلت مواقع الخطى ، عندئذ انحنت ، قابلتني بعينيها ، لاقتني بنظراتها ، أشرفت ، حنت عليَّ حنوا ، أطلت ، وكنت أعي أن قدري يكمن فى إحدى هذه الطلات . درجت نحوها ، ساعيا إلى روح وريحان ، حاولت النفاذ عبر عينيها ، فأقلعت عبر رياض ، ومفازات ، ولمست قمم أشجار نادرة ، وجزت وديانا وبيدا ، وطفت بمدن لم أطأها ، وفاتتني أرض لن أبلغها إلا بشق الأنفس ، رافلا فى نعيم القوم . متدثرا بحزن البلاد كلها وصحاريها ، غير أن وفاضي ارتد خاويا . لم يحط بشيء ، لكن تفجري دام ، لم يبلغني كدد ، حتى تعجبت فيما بعد ، أكان هذا كله مني ؟ حمت راجيا حول وجنتيها ، لثمتها بشفتي ، عاودت النظر ، فلما أيقنت من وصول طائرها ، وفضضت بريدها ، بركت على شفتيها . وانزلت متاعي وحملي . دفعت لساني إلى دفء فمها الوردي ، فكأن شقا مني ارتد جنينا ، كأن الوجود عاد سيرته الأولى . وعندما تطلعت إلى عينيها ، أيقنت توفيقي فى ابلاغ الرسالة . وأن المجاوبة آتية والتلبية على وشك ، لم تكف عن ندائي باسمي ، مطالبتي أن أهدأ ، لاح فى صوتها اشفاق وحنو . رأيت عينيها تسكبان رحيقا نحوي ، ورحيقها يا أخي لو تدري عجيب .

أعرف يا أخى مايجول بخاطرك لحظة اطلاعك ، عند ادراكك سطورى هذه ، ولكن صبرا يا اقرب صاحب ، وإن كنت فى بعد ، صبرا ، فإنى أبوح بما أخفى وما أبطن ، وإنى لمفسر لك . ولكن قبل ذلك يجب أن تصغى إلى ما أرغب تفصيله حول نظراتها تلك ..

نـظـر

افهمنى ولا تتعجل يا أخى ، نظرها إلىَّ المصحوب بترديد اسمى ، إنما يعنى أموراً شتى ، كانت كلها على مقربة ، وكنت دانيا ، جاثيا ، أرقبها ، وترقبنى ، نظرها يتردد بينى وبينها ، منها إلىَّ . نظر أضفى أطيافا على ملامحها ، على رونقها ، أكد لى قبولى عندها ، وللقبول يا أخى إذا تم شأن عظيم ، لكنه قبول مشوب بحيرة مشروعة . فلم يمض على تكوكبنا بمقادير دنيانا إلا قدر يسير ، ربما حيرة وليس ترددا ، فى نظراتها أيضا حث لى وحض ، أن أقدم ، أن أشرع حتى يصل الأمر إلى مداه ، إلى محطه الأخير ، أن يتوالج كونانا . لم تردنى ، إنما أباحت لى كوكبها الدرى ، حتى إننى جست بيدى خلال الأكم والروابى ، فلا ينقص الأمر إلا دفعة يسيرة متوقفة علىَّ . ولم أقدم ، لم أفعل ، مع إنى الطالب وهى المطلوب ! ستقول ، وفيم الاحجام ؟ فيم التقاعس . هنا أقول لك ، افهمنى ، وادرك ماعندى ، لم أسع إلى المنهى ، قد يبدو غريبا هذا ، ستسألنى ، ألم ترغبها ؟ أقول لك إن ماشب عندى حريق ، ومن امسكت النار بثيابه ، كيف يهدأ ؟ لكنى

بقدر مارغبت ، بقدر ما احجمت ، فانصهار كينونتنا لن يقدر له الدوام . ولم اكن أسعى إلى اتحاد عابر ، فى ظرفى ذاك . لو نلتها ونالتنى ، ربما أنتهى حومى ، وربما وضع الحد لاستمرار اقترابها منى . لم أقصد الوصول إلى المحط الأخير. إلى لحظة همود حتى وإن جاءت بعد ارتواء ، لم تكن بالنسبة لى نقطة عبور ، ولاجسرا مؤديا ، وعندما تعانقنا مال كل منا على الآخر يعتصم به من لحظات آتية ستجرف ما نحن فيه ، لا يمكن ردها ، وكنت أحتمى منها لحظة مرورها بالعناق ، بالاحاطة بها ، مدركا أن هذا لن يستمر لأن الظرف معاكس ، وهذا رغما عنى ، وعنها ، أما إذا مددت الخيط إلى منتهاه. فلن يتبقى شىء ، سبب ثان يا أخى كنت حريصا حتى لا يتملكها الظن أن هذا ماسعيت إليه لاغير ، ولكن ما أردت توصيله وعورة هيامى ، وشموليته ، وشدة توقى ، هل فهمت عنى يا أخى ؟ لاتفوتنى الاشارة إلى حدة وعيي بقصر المدة ، ولم أكن قادرا على التنبؤ بما سيصير إليه حالى لو صار الأمر إلى غايته ، ربما ألقيت بكافة المحظورات جانبا . ربما اختل دستورى ، وآثرت الهيام على وجهى إلى أبدى قربها ، أهجر ديارى ، واخترق حاجز العقل ، لك أن تتصور يا أخى ماصرت إليه كنت أدور حولها ، أنا الجزىء وهى النواة ، وما من اتحاد ، كأنى من طال بحثه عن نبع الحياة ، حتى إذا بلغه ، لم يدر أنه بغيته فتجاوزه دون أن يحسو منه ، وبعد الفوت أدرك خسرانه المبين . كأنى طائر الرخ الذى علق له السندباد قطعة اللحم فى

طرف العصا مدها أمامه ، موجها إياها إلى الجهة التى يرغب ، والرخ يطير لعله مدركها ، لعله مطعمها . ولكن عبثا التناول .

لعلى وفقت فى إبلاغك كنه الأمر.

اعلم يا أخى أن النظر تهادى بيننا . وعند لحظة بعينها ذوت حيرتها ، أيقنت باطلاعها على مكنونى ، هكذا احتوت رأسى بين يديها ، ملت حتى آويت إلى صدرها . آنست منه مأوى ، راحت تتخلل شعرى بأصابعها ، رددت .. « رمادى .. رمادى .. »

أوشكت على رؤية ملامحى فى نغم صوتها ، مافى رأسى من شيب . كنت أبسط تاريخى كافة أمامها . ترفع رأسى . تحدق إلىّ ..

« حزين .. لماذا هذا الحزن كله ؟

ثم قالت :

« لم تبق إلا ساعات وترحل .. »

ثم قالت :

« سأراك غدا . سأبقى معك حتى الرحيل .. »

ثم قالت .

« فى الساعة الثانية عشر ، سأكون فى مبنى الاتحاد .. »

قالت ونسيمها يسرى فى ثناياى ، مثيرا شوقا جامحا غير ذى عوج ..

« نلتقى هناك .. »

تراجعت قليلا . رأيتها حانية ، مطلة ، مشرفة علىّ ، محيطة

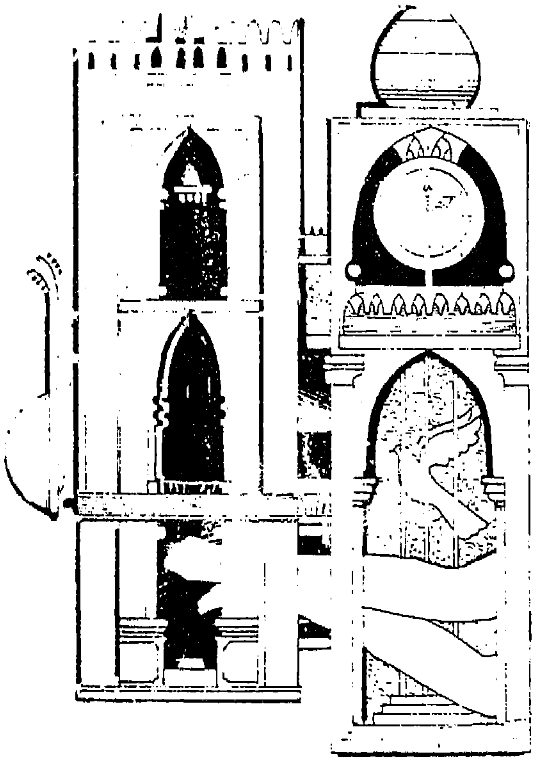
بى ، لم تلفظ إلا همسا . لا يمكننى تفصيل ماقلته ، أو ماقالته لى ، كانت تميل علىّ ، تزقنى الألفاظ ، تطعمنى مسك الحرف كما يهدى طائر الحمام الحب إلى فرخه الصغير ، على مهل كنت أتحول إلى عناصرى الأولى ، بينما وجدى يبدأ قبل بدء البعاد .

فهل أتاك ما كان منه عندى منذ أبد أبيد ؟



الـــوَجـــد

.. اعلم ياأخي ـ صبرك الله وخفف عنك مايسبب لك بأسا أو ضراً ـ أن الفراق حق ، والبين حق ، وأن التنائى حق . كل مجتمع مصيره إلى افتراق ، وإلا لما كان اجتماع أصلا . فلم أرها بين



شجرتى التوليب إلا لأنى فارقت ديارى وارتحلت ، لكن ، فرق بين ادراك ذلك بالعقل ، وأن تعيشه ، فرق بين وعيى به . واكتوائى ، اعلم ياصاحبى أن الأصل فى الأشياء التفرقة .. هكذا بدأ وجدى واشتد ، وأوعره ماجاء بعد تباعد ديار ، وانعدام يقين من أوبة أخرى ، هذا موجع . الوجد يا أخى شدة الشوق ، ولا يكون الشوق إلا إلى غائب ، وطول الوحشة يضاعف الحسرات ،

هذا ماصرت إليه بعد حين ، عندما عدت إلى دياري أغمضت عيني في ليلتي الأولى ، أشبه بالطافي ، الحوم في فضاءات رحبة وما من شيء يشده ، كان فرحي بادراكها . والوصول إليها . وفهمها عني ، مازال ممتدا . غضا ، فكأني سأصحو فألقاها بجواري ، اخرج من بيتي فكأني ذاهب إلى لقائها ، أينما وليت وجهي أراها مشرفة عليّ ، مرة تلوح هيئتها كما شهدتها في آخر لحظة ، وهي تقف أمام الفندق . وفي ملامحها شجي ، ترتدي معطفها الأسود ، تدس يديها في جيبيه ، حاسرة الشعر ، غير عابئة بالصقيع ، بعد استقراري في العربة ، خطر لي أن أغادرها ، أن أخطو ثلاث أو أربع خطوات . أمد يدي فألمسها ، أو أصافحها مرة أخرى ، أستوثق من كينونتها المادية ، غير أن الرحيل بدأ ، فلا مفر ، كنت كالظامئ المقيد المرغم يبسط نظره إلى الماء وماهو ببالغه ، وقفتها هذه تعتقت في خلاياي ، فلكم استعدتها ، وفي كل آونة أرى مالم اطلع عليه من قبل ، وعندما وصلت العربة إلى المنحنى ، حيث قام أول حاجز مادي حال بين بصري وبينها ، وخطر لي أن استأذن مرافقي ، أن أنثني لحظات ، غير أن ميناء الاقلاع بعيد ، والوقت يمضي بي إلى اتجاه آخر ، لا يؤدي إليها أبدا ، أراها الآن يا أخي لحظة تدويني هذا ، فاكتشف في وقفتها تلك حزنا أعمق ، وميل قوامها إلى الأمام ، وتهدل كتفيها ، لمحت في صالة الفندق ذوارف مطلة من عينيها فتحاشيت التطلع إليها . هل تفهم عني إذا صارحتك ، بودي انقضاء هذه اللحظات

الختامية؟ كان لابد من توقيع أوراق، وتسديد رسوم، وتوديع معارف، التأكد من وجود أوراق السفر. بينما تتحرك هى بمقربة. تكف إذا توقفت ، وتمشى إذا مشيت ، لاتتبادل الحوار إلا عرضا ، كنت أؤدى هذا كله وكأن شخصا غيرى انبعث من داخلى لينوب عنى ، ليبتسم هذا . ويؤكد ضرورة تبادل الرسائل لذاك ، كان وجودى قربها على مرئى منها فى هذه اللحظات الختامية كعدمه ، كذا وجودها بالنسبة لى ، كلانا فى مواجهة الآخر . لكن الانقطاع مقرر ، وعندما يصبح التنائى مفروغا منه ، لاراد له ، ينتفى الوجود وتنعدم الكينونة وإن قامت ، جربت هذا يا أخى عندما وقفت يوما أمام جثمان أمى ، كانت متمددة ، مغمضة العينين ، آوت إلى أبد ، ألمسها ، لكنها لم تعد من هذا العالم ، أميل لألثمها . لكنها بعد ساعة لن يكون بوسعى أن أناديها فتجيبنى ، وجودها غير موجود . وهذا شبيه بحالى مع تلك البنية فى لحظاتنا الأخيرة ، علما أن فراق الحى اصعب من فراق الميت ، لأن الأمل يندثر بعد حين أما الحى فيظل التعلق به قائما ، أنها تحضرنى يا أخى تتمثل فىَّ . أرى تلك اللحظة الوداعية . هذا الصرح من الحيوية أدركه ميل ، آيل بسببى ، وجهها الجميل يضاعف الأسينة ، خاصة والليل مكتمل ، وياقة الفراء تؤطر عنقها الجميل ، لم أدر أنها ستلازمنى مددا أضعاف ماقضيته معها من زمن حسى ، فلم يكن ماقضيناه معا إلا لحظات معدودات . ولم يكن تلاقينا إلا كتماس الشهب المارقة فى اتجاهات متضادة ،

غير أن كلا منها أودع الآخر لهبا ، وجمرا ، هكذا يا أخى نمت عندى حالة الفرح الغريب هذه فى الأيام الأولى لعودتى ، كنت أصحو مبتهجا متطلعا ببهجة إلى الآتى ، غير ذى صدود كأمرى قبل لقائى بها ، أعى نأيها عنى ، لكن لايفزع قلبى . ولا تهرع روحى . إنما أقدم نشيطا ، راغبا فى رؤية صحبى ، والمضى إلى الأمكنة التى أفضل البقاء فيها منفردا ، أقلب حاجاتى التى صحبتنى فى سفرى مبتهجا ، قبل مفارقتنا الغرفة رجوتها أن تمسك حقيبة سفرى ، وحقيبة يدى . وحلتى التى أرتديها . والأخرى التى قالت إنها تفضلها ، وكتبى . ودفتر ملاحظاتى . وغطاء رأسى ، وجواز سفرى ، حتى ينتسب كل شىء يخصنى إليها . وحتى ألامس مواضع مرت عليها أناملها ، وأنفاسها لعلى مدرك أثرا . لعلى أرى ما لا يمكن رؤيته بالنظر، دام انطلاقى هذا أياما معدودات ، صعب علىّ إحصاؤها بدقة ، لكننى بقيت خلالها غير منتبه إلى المسافات القصية ، لا أدرى ماسيصير إليه نبئى بعد حين .

إذا لاقيت صاحبا أود لو حدثته عنها ، أو أدير الحديث إلى وجهة تمكننى من إيراد تفاصيل متعلقة بها ، غير إنى دائما أقف على شفا البوح ، فما لزمته بعد هذا العمر أن أكتم واحجب ، كانت تملأ علىّ جهاتى . أتوقعها مقبلة نحوى . تفتح باب مكتبى ، تلج فراغه دافقة الحيوية إلى روحى فأشب بعد اشعالها الجذوة ، بل أتمهل أحيانا كأنها نادتنى وفى الزحام يصير وجودها قويا . حتى أوشك علىّ تلمس جسدها الضاج قربى . كأنها تسعى حولى .

كأنها توشك أن تدنو مني ، كأنها مقبلة ، مبتسمة ، مادة اليد ، مصافحة اياى ، كأن لقائى بها مفروغ منه .

صرت أتوقعها كما بدت ظهيرة ذلك اليوم فى حديقة الاتحاد ، أخبرتك يا أخى أنها أفضت إلىَّ ببقائها يوم رحيلى ، حددت مقر اتحاد الفنانين مكانا ، أما الوقت فدار حوله همى ، طوال الليل المتبقى بعد انصرافها ، رحت أستعيد ماتبقى منها . ما أودعته فراغ سكنى المؤقت ، غرفة الفندق ، فى مطلع النهار الجديد طوقنى شوق ، مسنى إليها أول حنين ، هرعت إلى المكان الذى لزمته معظم الوقت ، قبلته ، إلى موضع جثونا فلثمته ، كنت أتعجل مرور الزمن واستبطئه ، فما خلا منها ارغب انقضاءه. وما اكتمل بها وددت ديمومته ، ولكن يا أخى هل يدوم شيء أبدا ؟

خرجت إلى فضاءات المدينة الفسيحة ، المجللة بالجليد ، طفت متاجر البضائع الأجنبية باحثا عن عطر تفضله . وعندما لمحت علامته تناولته ، ضممته . قام بينى وبين القارورة الصغيرة أمر خاص . مررت قبل الموعد المحدد بمدخل المبنى . طفت الشوارع المحيطة صقيع وعر ، وبرد لم أعتده ، لكن ماخفف عنى أن كل خطوة تقربنى إليها ، كنت أمشى محاذرا الجليد فوق الرصيف ، متدثرا بمعطفى ، مسدلا غطاء رأسى . جزت البنايات الهائلة ، والمداخل ، والنواصى المؤدية ، حتى اجتزت الباب الخارجى الفسيح إلى الممر الدائرى الذى يتخلل الحديقة ، بالضبط الثانية عشرة ، المقاعد مثقلة بأكوام من ثلج هش ، تحسبه بالنظر صلدا

حتى إذا لمسته أو امسكت حفنة منه تذرى ، تماما كغياب وعيك بعض اللحظات ، أثارت نصاعته عندى بهجة غامضة . تذكرت صاحبة لى تقيم فى مدينة نائية ، قالت لى يوما إنها تتفاءل بنزول الثلج ، وقفت متطلعا إليه ، منصتا ، الشتاء يضفى بعدا غامضا على الموجودات ، لعلى ألتقط إيقاع مرور الوقت ، الزمن ، أو ذلك الخفى المبين الذى يجمع ويفرق ، غير أن ضجيج المدينة المندغم . المدوم ، حجب وأبهم .

سمعت خطاها . صوتها ينادينى دهشا ، مبتهجا ، التفت فرحا ، فوجئت ، لاترتدى إلا قميصا من صوف خفيف ، اجتازت الحديقة نحوى حاسرة بدون غطاء رأس . بدون معطف ، كيف تخرج هكذا . أشارت إلى ساعتها ..

« الثانية عشرة تماما ..»

اشرقت ، اجبت ..

« طبعا »

مبتسمة ، متهللة ، ضاجة بالفورة الحيوية ، تصور يا أخى لو امتد الأمر عدة من أيام أخر . تصور توالى ظهورها ، تنوع إبداعها وطلاتها وجميل لفظها المقتصد . فى كل مرة تجدد ، وتهلل مغاير ، وتعاقب تعبيرات على الملامح التى أخذتنى حتى عن نفسى ، غير أن لهذا اللقاء الأخير معزة ومنزلة ، عند تواجهنا اختلف الوضع عن المرات المنقضية ، فبعد أن دنا كل من الآخر الليلة الماضية ، بعد تمابس كونها بعالمى ، صار عندها منى ،

وعندى منها ، امتد وقت ، ومودة ، وصلة ، أما قربها منى فله خصوصية اخص ، ضاج ، فواح ، مشع تجاهى ، فكأنى بالنظر ألمس جسدها ، أتوسده ، هذه الوقفة ، تلك الطلة . قربها . ترحيب عينيها ، علق بى هذا كله ، صار مددى فى قفرى ، وزادى فى بيدائى ، وخلال أيامى التى تمكن فيها الفرح المريب منى طال توقعى لظهورها ، كما بدت فجأة فى هذه الحديقة ، لم يكن وعيي بفقدها قد بدأ بعد وهذا حال خبرته ، لكن فى ظروف مغايرة مختلفة ، وانى لقاص عليك نبأ منها لعلك مدركى . اعلم أنه بعد رحيل أمى . ورحيل أبى ، انقضت أيام ثقال لا يمكننى إحصاؤها الآن ، كنت أهيم خلالها فى الطرقات غير واع بالفقد ، غير مصدق ، متوقعا ظهورهما عند أى منعطف ، أو طرق أبى بأبى كما كان يفعل . أو دخولى صالة البيت فأجدها فى انتظارى ، شيئا فشيئا بدأت أنتبه للفقد المحتم، وإن ماكان لن يكون، لن أصغى إلى الصوت الذى ألفته ، ولن ألامس اليد التى عرفت ، انتبه ياأخى إلى ماقلته لك، انقطاع الرجاء من لقاء الحى اصعب، فمن رحل إلى أبد يبلغ المدى بأهله وصحبه حدا يؤوسا ، فما من امكانية قط ، وهكذا يفضى اليأس إلى النسيان ، لذا يقولون إن كل شىء يولد صغيرا ، عدا الحزن على الميت فإنه يبدأ كبيرا ثم يضمر، أما فراق الحى فهذا هو البين عنه . والبأساء والضبر، خاصة إذا تباعدت الديار ، وشط المزار ، وأدرك الوهن أملا فى لقاء ، اعلم يا أخى أن الأيام الأولى التى حدثتك عنها شبيهة

بالخروج من دفء الغرفة إلى الصقيع ، جربت هذا . بعد الخروج تنقضى لحظات لا يصلك فيها شدة البرد . ثم شيئا فشيئا يسرى ، حتى يلفك فترتجف ، انها أشبه باللحظات الفاصلة بين وقوع الصدمة والشعور بالألم الجسمانى ، فى هدأة انفرادى ذلك العصر. ألقيت بذاتى فى عينيها الواسعتين ، الفسيحتين ، فجأة غزانى خوف غريب ، متى سأراها ، وما الحال الذى سألقاها عليه ، قلت :

« أخشى الموت ، وإلا أراك .. »

بادرتنى على الفور ، رنتها عاتبة ، شاكية قولى ..

« لكنك يجب أن ترجع إلىّ .. »

اعلم يا أخى أن الوجد يبدأ مع اكتمال الرحيل ، وتباعد الديار وانعدام اليقين من الأوبة ، هذا عين الخطب الموجع ، شيئا فشيئا بدأ فرحى يذوى ويبدأ وعيى ببعدها ، بالمفازات . بما يفصلنى عنها من مواضع وبرارى وقفار وفلوات وخراب . بحار ، وتلال ، ارتفاع وانخفاض . ومراع ومدن . وهذه مواضع ستتبدل يوما . فالبحار ستصير جبالا والبحار ستصبح رمالا ، فلا شىء يبقى ، إذن .. فما أبعد التلاقى ، وطول المسافات ، واختلاف النظم ، وريبة العسس فما أتعس وما أظلم ، تطلع شمسى قبل شروق شمسها ، ويسدل ليلى قبل ليلها ، فلا الزمان يوحدنا ، ولا المكان يجمعنا . فماذا بوسعى ان أفعل ؟ حتى إذا انقضت شهور ، وعادت الفرصة ، وساعد الوقت ، فهل سألقاها ؟ ربما تكون على

سفر ، أو فى شغل عنى ، أو عرض لها عارض أحالنى إلى صدفة جد عارضة فى حياتها المتدفقة . وإذا دنوت وقمت واقفا أمامها ، هل سألقى من عرفتها ؟.

كنت ألمح لك دائما أن الإنسان فى الثلاثين غيره فى الأربعين ، واننى فى الخمسين مغاير لما كنته فى العشرين . تذوى أمور وتستجد أشياء لم نتوقعها من قبل ، لم تدر بخلدنا يوما ، تنزوى أصول لم نتوقع قط تلاشيها . اذكر قولك إن الجوهر لا يتغير . صحيح يا أخى ، لكن هل تظن أن اللب قصى ، مستعص على التغيير أقول إن الأمر غير يقينى ، الآن أطيل النظر إلى مافات ، ما انقضى أطول مما تبقى ، أما هى فتسعى بعيدا عنى ، ويبدو ماينتظرها بعيد المدى ..

لما اكتمل وعيي يا أخى بالبعاد صرت إلى شجى ، إلى أسى ، هكذا ناء الوجد ، صرت أسعى إلى كافة مايمت إليها ، قرب أو بعد ، حتى الإذاعة التى تتخذ من مدينتها مقرا ، اعتدت الاصغاء إليها ، احاول جاهدا تمثل المذيع ، رسم ملامحه من صوته ، ربما يسكن على مقربة منها ، بامكانه لو أنه يعرفها السعى إليها ، أن يبلغها بعد دقائق . صرت أتفحص الخرائط ، أضع العلامات ، بخارى ، سمرقند ، طشقند .. موسكو ، تحركنا من هنا إلى هنا ، اكتمل ظهورها فى مدينة . وتعارفنا فى بخارى ، وشرعنا فى سمرقند ، وفى العاصمة الكبيرة جرى التلاقى والتفرق . أما الحنين والتذكر فله قاهرتى الحانية علىَّ ، هكذا .. كان اللقاء فى قارة ،

والفراق فى أخرى ، والوجد فى ثالثة ، صرت أقعد فى جمع ياصاحبى فأكاد اسمع سعيها البعيد . توشك أن تقترب منى حتى أتأهب لتنسم عبيرها المفقود ، المتفرد ، أدرك بغتة الاستحالة ، فأفارق الصحبة . ابتعد عمن اعرف . أستقبل وحشة الطرقات . أمضى بلا هدف ، بلا مقصد ، حولى حشد ، لكنى فرد ، متوحد ، أحيانا أمضى إلى صاحبى ، من رافقنى رحلتى ، من رآها ، من حادثها . واطلع على بعض مما عندى ، حتى أنه صار إذ نلتقى يسألنى ضاحكا ..

« .. أنت هنا أو هناك ..»

فأجيبه مبتسما ..

« فى الأمر وحشة ..»

بعد نزوعى إلى شيوع أمرى ، إلى الافضاء بما عندى لكل أحد ارتددت إلىَّ ، أما حضورها عندى فصار مختلفا عما جرى فى الأيام التالية لعودتى ، احيانا تبدو فجأة ، ليس أمامى فقط ، وإنما حولى ، اصغى إلى تحفظها على تبادلنا الخطابات ، استعيد ملامحا حذرها البادى ، فأنا عند قومها اجنبى ، وما أكثر الريب ، غير أنى أثر انقضاء أيام الفرح . وبدء طرقات الوجد ، لم أبال ، رحت أشيع الرسائل . مرة فى الصباح ، والثانية عند الظهر ، والثالثة ليلا ، أكثر من شهر كامل ، أحيانا لا اخط إلا التحية ، وكأنى استعيض عن نطق بكلماتى المكتوبة ..

ولم اتلق ردا ، لم تصلنى اشارة ..

مع بدء الشهر الثانى ولأسابيع عديدة لم اتخلف يوما عن تشييع رسالة عند مطلع كل يوم ..

ولم تصلنى مجاوبة ، لم ترتد رسائل إلىّ ..

كنت كراكب سفينة ، تبحر مبتعدة عنْ المرفأ ، والميناء يتضاءل تغيب ملامحه ، تختلط مبانيه ، تصبح تضاريسه مجرد خطوط لاتنم عما تحتويه من حيوات ومصائر. حتى إذا بلغت المسافة حدا تداخل البحر فى البر. وطغت السيولة والديمومة ، فيبدو ماكان وهما .. والبحر يطغى ، ليشمل حتى الأفق ..

دام حالى مدى ، ولا أشارة ، ولا ايماءة خط حتى ، مع توالى المسافات انتهى بى الحال إلى المناسبات ، فمن ذلك رأس السنة ، وقدوم الربيع ، ويوم مجيئها إلى العالم ، ويوم اكتمال ظهورها بين شجرتى التوليب ، أحدق إلى العنوان ، هذا خطها هى ، الشارع ، الرقم ، كتبته عندما كنا نجوز الفضاء عائدين من آسيا ، إذن .. العنوان حقيقى ، واليد التى خطته حقيقية ، والوجه الذى دنا وابتسم عند تقديم الورق له كينونته ، ألم اقترب؟ ألم أحدق وألامس؟ عندئذ يتوهج داخلى يا أخى فأوشك على استعادتها عندما احتويتها عندما طويتها بين ذراعى ، عندما اقلعت صوب عينيها . صوب شفتيها ، عندما تموج جسدها وتحرك متبعا تناغمه الداخلى لينبئ أنه طوعى ، وأنه ملبٍ إن أردت . إن دفعت الأمر قليلا ، إن خطوت خطوة يسيرة ، غير أن الوقت المحدود ، والفرصة غير المساعدة ، والرحيل الوشيك ، وماسيطر

على فكرى ويقينى ، أن بقاء هذا الوله فى عدم اكتماله ، هل أخطأت ؟ لا أدرى .. ولكن الشك يعاودنى مع ضياع المدة ، امضى إلى ماقدمته إلى قبل أن يتخذ كل منا طريقه ، الساعة العتيقة ذات الجرس الخزفى ، استعيد قولها إذا قرعت الجرس يوما ، فسيصلنى صداه أينما كنت . أمسك الساعة أخرج إلى صحراء الصمت الليلى . اهزها ، اصغى إلى الرنين المعدنى إذ يتلاشى ، أطيل اصغائى .. لكن ، مامن نبأ !

عرفت الانصراف المفاجئ وأنا فى جمع ، إذ يتدبب وعى فجأة . إنها نائية ، قصية ، وإن اللقاء صعب ، عندئذ أدخل فى هجاج لما يتملكنى من يأس اللقيا ، ومن انعدام إمكانية مشاهدتها مقبلة علىَّ ، أو حانية بنظراتها ، أو مجاوبة بحركاتها النغمية . حيث يتخذ جسدها المطواع ، الفاره ، أوضاعا عجبا ، أو سكون ملامحها عندما طلبت أن نقضى الدقائق الأخيرة صامتين ، يتطلع كل منا إلى الآخر ، يتزود كل صاحب من صاحبه ، ثم أهدتنى ثلاث زهرات ، هكذا .. أستعيد تحديقها إلىَّ ، وأحيانا أوشك على الاصغاء إلى سعى عبيرها نحوى ، هذا أصعب الوجد ياصاحبى ، فلكم أمضيت الوقت مستنشقا نسائمها . من ثيابها ، من راحة يدها ، من خصلات رأسها أتأهب لوفودها علىَّ . أقف صامتا ، متطلعا إلى الجهة التى أتوقع منها القدوم والورود . وإذ يكتمل وعيي بأننى ماكنت أسعى للاندماج إلا بالصورة ، أفز من مقعدى راغبا فى اختراق اللاممكن ، وإذ أنوء أرتد خائبا ،

مستعيدا نظراتها . حنوها . مستفسرا . متسائلا ، هل ماجرى كان حقيقة أو وهما ، وهذا ما أمر به الآن ، هذا دافعي لمخاطبتك أنت دون غيرك ، فلم يعد لى من الأقربين ألا أنت وإن بعدت المسافة ، وطال زمن غربتنا عن بعضنا ، فما وصفته ، وما سردته ، وما رويته ، لم يكن إلا محاولة أيضا للملمة ماتبعثر ، لاسترجاع ماغلب عليه الوهم واللايقينية . وإن ماكان حق . وليس برقا لمع ، أو شهابا مرق ، وإلا فأى وجد هذا يبحر داخلى ؟ ويبقينى نائيا عن الخلجان والمرافئ الآمنة ، أحيانا أنتظر مرات هبوبها علىَّ وأتمنى أن تحل بى ، فينزل على قلبي بردا وسلاما ، أشبع بغير امتلاء ، كما حدث ذلك الشيخ الجليل ، عن حاله ، قبل عدة قرون زمنية ، إذ قال ما نصه ياأخى :

« وقد بلغ بى قوة الخيال أن كان حبى يجسد لى محبوبى من خارج لعينى ، فلا أقدر انظر إليه . ويخاطبنى واصغى إليه وافهم عنه ، ولقد تركنى أياما لا اسيغ طعاما ، كلما قدمت لى المائدة يقف على حرفها وينظر إلىَّ ، ويقول لى بلسان اسمعه بأذنى .

« تأكل وأنت تشاهدنى ..»

فأمتنع عن الطعام . ولا أجد جوعا ، وامتلئ منه حتى سمنت وعبلت من نظرى إليه ، فقام لى مقام الغذاء ، وكان أصحابى وأهل بيتى يتعجبون من سمنى مع عدم الغذاء لأنى كنت أبقى الأيام الكثيرة لا أذوق ذواقا ، ولا أجد جوعا ولا عطشا ..» هذا مادونه الشيخ الجليل ، وليتنى مثله ، قنعت بما كان عليه ، لذلك أولى

وجهى صوب اللاجهة ، متوقعا اكتمالها أمامى ، كما كانت عليه فى اللحظات الدانية من افتراقنا ، ورأسى بين راحتيها ، عندما قلت لها ..

« أخشى الموت ، ولا أراك ..

فالقت فى سمعى قولا جميلا ، حزينا .

« لكنك يجب أن ترجع إلىَّ .. »

ولهذا أسعى يا أخى ، بلغك الله ماتتمنى ، .. »

جمال الغيطانى

مارس ـ يوليو ١٩٨٧

الفهـــرس

رقم الايداع ١٩٨٩/٨٦٩٧

الترقيم الدولى . ٨ ـ ٣٤٨ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت: ص.ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



رسالة في الصبابة والوجد

عنوان أختاره جمال الغيطاني لعمله الفني ليدل منذ ما قبل الكلمة الأولى على عمق ارتباطه بتراث أمته ومنهجها في القصّ وطريقتها في التعبير عن مكنون تجاربها ، وبخاصة التجارب الوجدانية الصادرة عن خبرة شخصية مباشرة .

إن هذه الإشارة الدالة تكاد تميز الغيطاني بين أدباء جيله .

د . محمد حسن عبد الله

هكذا تطلع ليلى جديدة من سمرقند لتضيء غياهب الروح وتشرف على عزلتها كشمس مفاجئة . ليست «فاليريا» سوى وجه آخر من وجوه «ليلى» ، وليس الراوي سوى تجلٍ من تجليات «قيس» في بحثه الدائم عن الاتحاد بالمعشوق إلى حد الانصهار الكامل .

رسالة في الصبابة والوجد هي نوع من مرثاة شعرية للبشر والعواطف والحضارات ليس فيها من ديمومة لغير الزمن .

شوقي بزيع/لبنان

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣